

الفصل الثالث

جوانب القاضي الجرجاني

١ - آثاره

ألف القاضي الجرجاني :

١ - « كتاب تفسير القرآن المجيد » ، ذكره له ياقوت^(١) ، ولعلّ هذا الكتاب هو الذي جعل الداوودي يؤرّخ للقاضي في كتابه : « طبقات المفسرين » .

٢ - و« كتاباً في الوكالة » ، ذكره له السبكي في كتابه : « طبقات الشافعية » ، وقال : إنّ في هذا الكتاب أربعة آلاف مسألة^(٢) . وذلك يدلنا على علم غزير ، واطلاع واسع ، ولهذا التبحّر في الفقه ، أرّخ له أبو إسحق الشيرازي في كتابه : « طبقات الفقهاء » ، وأرّخ له السبكي في طبقاته ؛ والتاريخ له في هذا الكتاب يدلّ على أنه كان شافعيّ المذهب .

وكانت دراسته للفقه ، وشهرته به ، هي التي رشّحته لمنصب القاضي .

٣ - وكتاب « تهذيب التاريخ » ذكره له ياقوت^(٣) والثعالبي^(٤) ؛ ويبدو من خطبة هذا الكتاب التي سجلها كتاب اليتيمة^(٥) أنه كتاب في تاريخ الرسول ، وذكر آثاره وأخباره ، ومعارف أحواله وأيامه ، وبيان غزواته ،

(١) معجم الأدباء ١٤ : ١٩ .

(٢) طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ .

(٣) معجم الأدباء ١٤ : ١٩ .

(٤) يتيمة الدهر ٤ : ٧ .

(٥) يتيمة الدهر ٤ : ٨ .

بالإضافة إلى قصص من أنباء الأولين ، وأخبار الآخرين ، وما لهم من آثار في الأرض ؛ وربما أراد بهؤلاء ملوك الفرس وما كان لهم من عظمة وسلطان ، وما تركوه في بلادهم من الآثار .

وكان الثعالبي معجباً بهذا الكتاب قال عنه : « إنه تاريخ في بلاغة الألفاظ ، وصحة الروايات ، وحسن التصرف في الانتقادات » ثم نقل^(١) فصلين منه في كتابه^(٢) .

وذاك يدلنا على أن القاضي الجرجاني تأقن في صياغة كتابه ، واختار له لغة رفيعة مؤثرة ، وأنه كان يقف أمام الروايات يدرسها ؛ ليختار أصحها ، ولم يكن يقبل كل ما يقال ، بل كان يحكم عقله في الأخبار المروية ، يبين صحيحها والزائف منها ؛ وعنوان الكتاب ، وهو تهذيب التاريخ يدل على الحطة التي انتهجها صاحبه في كتابة تاريخه من انتقاء صحيح المعلومات ، واختيار صادق الروايات ، ونفي ما لا يثبت للعقل صحته .

وإن هذه الحطة العادلة تتفق مع نفسية مؤلفه قاضياً عادلاً . وفقد كتاب مثله بعد خسارة للمكتبة العربية .

وقدّم القاضي كتابه للصاحب بن عباد ؛ فقد قصد به مؤلفه غرضي دين ودنيا : أما الغرض الديني فتاريخ الرسول لأهداف ذكرها القاضي ؛ وأما الدنيويّ فأن يكون الكتاب تذكرة له عند الوزير ، يتجدّد به ذكره بحضرته ، ويتكرر به اسمه في مجلسه .

٤ - وكتاب « الأنساب » ، قال بروكلمان^(٣) : إن ابن خلدون في تاريخه (١ : ١١٠ - أسفل) ذكر للجرجاني هذا الكتاب ، ولا بدّ أن يكون في التاريخ ؛ لانتفاع ابن خلدون به في كتابه .

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٧ و ٨ .

(٣) تاريخ الأدب العربي ٢ : ٢٧١ .

٥ - وله « رسائل » قال عنها ياقوت : إنها مدوّنة ^(١) ، ولكن لم يرد إلينا منها شيء ، ولم يورد الثعالبي منها شيئاً ، ولكنه اكتفى في نثره بما اقتبس من كتابي الوساطة وتهذيب التاريخ ، وأجرى ذلك مجرى النموذج من نثر كلامه ^(٢) .
ولعلّ من هذه الرسائل ما كان سلطانياً ، فقد روى ياقوت أنه أنشأ عهداً للقاضي عبيد الجبار على قاضي الرّى ^(٣) ، ولعله أراد بذلك أن يبين مقدرته على كتابة مثل هذه العهود للصاحب بن عباد ، فدحه الوزير ببيتين من الشعر ^(٤) .
٦ - وله « ديوان شعر » أثبت له ابن خلكان نقلاً عن أبي إسحق الشيرازي ، وقال السبكي في طبقات الشافعية ^(٥) : « وله ديوان مشهور » ، ومن ذلك يبدو أن ابن خلكان لم ير الديوان ، فلو أنه رأى ما نسب ذلك إلى غيره ، فهل بقي الديوان وكان مشهوراً في أيام السبكي المتوفى سنة إحدى وسبعين وسبعمائة هجرية ^(٦) .
وقد ضاع الكثير من شعره ، وما بقي لنا منه قليل ، لا يكون ديواناً « صغيراً » ، وتجد معظمه في معجم الأدباء وبيتية الدهر .

٧ - أما الكتاب الذي وصل إلينا كاملاً من مؤلفاته فهو « الوساطة بين المتنبي وخصومه » ، وهو كتاب له قيمته الكبرى في النقد الأدبي وقد بينا أن ظهور مثل هذا الكتاب طبعي في العصر الذي ألفت فيه ، وأن مؤلفه قاض يريد أن يبين ويستبين مواطن الحق فيما يقوله الخصوم والأنصار .
ويظهر أن السبب المباشر لتأليف هذا الكتاب هو أن الصاحب بن عباد وضع رسالته المعروفة في إظهار مساوئ المتنبي ، فلم ترق القاضي هذه المغالاة التي

(١) معجم الأدباء ١٤ : ١٦ .

(٢) بيتية الدهر ٤ : ٧ .

(٣) معجم الأدباء ١٤ : ١٥ .

(٤) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٤ .

(٥) ٢ : ٣٠٨ .

(٦) الأعلام للزركلي ١ : ٦١٠ .

يحملها للشاعر الخصوم والأنصار على السواء ، فألف كتابه : « الوساطة » .

وأما السبب الذى دفع الصاحب إلى تأليف رسالته فهو أن الصاحب لم ينس الإهانة التى وجهها إليه الشاعر ، ذلك أن الصاحب كان كاتباً يخدم ابن العميد فى الرقى إلى أن استكتبه ابن العميد لمؤيد الدولة أبى منصور بؤيه أمير أصبهان ، فلما زار المتنبى ابن العميد طمع الصاحب فى زيارة المتنبى إياه بأصبهان ، وإجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان ، وهو إذ ذاك شاب لم يستوزر بعد ، فكتب يلاطفه فى استدعائه ، ويضمن له مشاطرته جميع ماله ، فلم يُقيم له المتنبى وزناً ، ولم يحبه عن كتابه ، وقيل إن المتنبى قال لأصحابه : إن غليماً معطاء يريد أن أزوره ، وأمدحه ، ولا سبيل إلى ذلك ، فصيّرته الصاحب غرضاً يرشقه بالسهام ، ويتتبع عليه سقطاته فى شعره وهفواته ، وينعى عليه سيئاته ^(١) . وانتهى الأمر بأن وضع الصاحب رسالة أعان منذ بدئها أنه كتبها ليبين ما فى شعر المتنبى من العيوب ، وليرد على من يظن الشاعر « معصوماً لا يرى له زلل ، ولا يوجد فى شعره خال » ^(٢) ؛ إذ قال فى أوّل الرسالة : « وكنت ذاكرت بعض من يهتم بالأدب والأشعار وقائلها والمجودين فيها ، فسألنى عن المتنبى ، فقلت : إنه بعيد المرمى ؛ وشعره كثير الإصابة فى نظمه ، إلا أنه ربما أتى بالفقرة الغراء ، مشفوعة بالكلمة العوراء ، فرأيت قد هاج ، وحشى وتأجج ، وادعى أن شعره مستمر النظام ، متناسب الأقسام . ولم يرض حتى تحدثنى ، فقال : إن كان الأمر كما زعمت فأثبت فى ورقة ما تنكره . . . ففعلت ذلك ، وإن لم يكن تطلب العثرات من شيمتى ، ولا تتبع الزلات من طريقي ، وقد قيل : أى عالم لا يهفو ، وصارم لا ينبو ، وأى جواد لا يكبو؟ » ^(٣) .

وتلك الكلمة التى صدر بها رسالته تدل على أمرين :

(١) الصبح المتنبى ص ٨٢ .

(٢) الكشف عن مساوى المتنبى ص ٢٤٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٢ .

أولهما : أنه لم يضع رسالته ليبين حسنات المتنبي وسيئاته، حتى « يقدح في المؤلف أنه لم يشر إلى أية حسنة للمتنبي . ولا أورد له أى بيت من أبياته الجميلة الكثيرة العدد » ، كما انتقده بذلك بعض الباحثين^(١) ، وإنما وضع الرسالة خالصة لبيان العيوب . فلم يذكر لذلك المحاسن .

وثانيهما : أن صاحب لم يدع أن شعر المتنبي « عيب كله ، بل قرّر أنه بعيد المرمى ، وشعره كثير الإصابة في نظمه ، بل إن اعتذاره بأن العالم قد يهفو ، والصارم قد ينبو ، والجواد قد يكبو ، وتصديره ما عيب عليه « ربما » ، يدل على أن المعيب من شعره . وإن كثر ، قليل بالنسبة إلى كثرة الإصابة في نظمه ؛ فلا وجه للدّهشة إذاً من أمر صاحب ، إذ « نراه ينقد المتنبي هذا النقد المرّ مع أنه قد تأثر به ، وأخذ عنه » ، ولا أن تثبت إليه نسبة الرسالة التي عنوانها : « كتاب الأمثال السائرة من شعر المتنبي » ، وأن يكون صاحب « قد عاد عن تحامله إلى الإنصاف » ، كما توهم ذلك بعض الباحثين^(٢) ؛ لأن صاحب لم يكن منكراً لفضله ، ثم عاد ، فأثبتته ؛ ولا مثبتاً في رسالته ضعف أبيات ، ثم رجع عن عقيدته فيها ؛ ولكن رأيه الصّريح فيه أن شعره مصيب تعرّض فيه على بعض السقطات ، فأبان عن بعض سقطاته في رسالة الكشف عن مساوئ شعره . وليس ببعيد أن يبين محاسنه في كتاب آخر ، ولا يكون صاحب بذلك متناقضاً مع نفسه ، حتى نضطر إلى أن نزعّم أنه كان متحاملاً عليه . ثم عاد عن تحامله .

ويمضي صاحب في رسالته ، مورداً أبياتاً له عسرة الفهم ، أو ذات ألفاظ تمجّحها النفس ، أو معان غير مقبولة ، أو تدل على سقوط نفسه ،

(١) أنقد المنهجي عند العرب ص ١٨٦ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

أو استعارات غير موفقة ، أو كلمات شاذة أو غريبة ، ، أو أسلوب معقد ، أو مطالع رديئة ، أو ضرورات غير مستساغة ، أو قواف قلقة ، أو كان الشعر لا يناسب المقام ، أو نحو ذلك من وجوه العيب .

والصاحب قد يبين أسباب نقده للشعر ، وأحياناً لا يذكر هذه الأسباب ، وفي كثير من المرات يسخر بالشعر الضعيف الذي يورده للمتنبي ، أو يورد أبياتاً قوية ، ليرى الفرق بينها ، وبين الرديء الذي يستشهد به للشاعر ، أو يبين نزوله عما سلم الناس بنزوله من الشعر .

ويبدو من صاحب القسوة في تعليقه على ما يورده من منتقد شعر المتنبي ، وإن كنت تجد نفسك مسلماً بوجهة نظر صاحب في أكثر ما أورده من الأبيات .

ويقف القاضي الجرجاني موقف من يريد أن يكون قاضياً يفصل في الخصومة ، يقول القاضي : « وما زلت أرى أهل الأدب . . . في أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي فتتين : من مطنب في تقرظه ، منقطع إليه بجملته ، منحط في هواه بلسانه وقلبه ، يتلقى مناقبه إذا ذكرت بالتعظيم ، ويشيع محاسنه إذا حكيت بالتفخيم ، ويعجب ويعيد ويكرر ، ويميل على من عابه بالزراية والتقصير ، ويتناول من ينقصه بالاستحقار والتجهيل ؛ فإن عثر على بيت مخجل النظام ، أو نبه على لفظ ناقص على التمام ، التزم من نصرة خطئه ، وتحسين زله ، ما يزيله عن موقف المعتذر ، ويتجاوز به مقام المنتصر - وعائب يريد لإزالته عن رتبته ، فلم يسلم له فضائله ، ويحاول حطه عن منزلة بوأه إياها أدبه ؛ فهو يجتهد في إخفاء فضائله ، وإظهار معاييه ، وتتبع سقطاته ، وإذاعة غفلاته . وكلا الفريقين إما ظالم له ، أو للأدب فيه » (١) .

ولذلك ألف القاضي الجرجاني كتابه لا يهيج فيه نهج المفرطين في المدح ،

ولا الزّارين على الشاعر بالباطل ، ولكن أن يبين وجه الحق فيما قاله الحصان . ويرى صاحب الوساطة أن المرء إذا دلت على فضله آثار ظاهرة ، ونطقت بتقدمه شواهد صادقة « فصاحبها فاضل متقدّم ، فإن عثر له من بعد على زلة ، ووجدت له بعقب الإحسان هفوة ، انتحل له عذر صادق ، أو رخصة سائغة ؛ فإن أعوز قيل : زلّة عالم ، وقل من خلا منها . وأى الرجال المهذب » ^(١).

ذلك هو المبدأ الذى يدين به القاضى الجرجاني ، ومعناه ألا ينبغي أن تذهب السيئات بالחסنات ، وألا يفخّم من أمر السيئة بل ينتحل لها العذر على أن يكون صادقاً ، وأن يعترف بالخطأ إن لم يمكن التماس العذر . وإنّ هذا المبدأ هو الذى يميّز بين القاضى وخصوم الشاعر وأنصاره ؛ فالأولون لا ياتمسون العذر للزلات ، ويمضون معظّمين من شأنها ، والآخرون لا يعترفون بالخطأ ، بل يلتمسون معاذير لا يصححها العقل ، ولا يرضاها . وربما كان تعظيم السيئات فى الرسالة التى كتبها الصاحب بن عباد هو الذى حفز القاضى إلى تأليف كتابه ، يقول الثعالبي : « ولما عمل الصاحب رسالته المعروفة فى إظهار مساوئ المتنبي ، عمل القاضى أبو الحسن كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه » ^(٢).

وبعد فتنى ألف القاضى هذا الكتاب ؟

الذى أرجّحه أن الصاحب ألف رسالته بعد موت المتنبي وقبل موت ابن العميد ، وقبل أن يصبح هو وزيراً ومعنى ذلك أن الرسالة ألّفت بعد سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وهى السنة التى مات فيها المتنبي ^(٣) ، وقبل سنة ستين وثلاثمائة ، وهى السنة التى مات فيها ابن العميد ^(٤).

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٤ .

(٣) وفيت الأعيان ١ : ٣٧ .

(٤) المرجع السابق ٢ : ٥٩ .

وسبب هذا الترجيح أن مقدّمة الرسالة تشعر بأنّ الحديث عن شعر رجل أصبح في ذمة التاريخ ، كما أنّ الهجوم العنيف الذي في الرسالة يدلّ على أن صاحب لا يخشى أن يهجو الشاعر بقصيدة لا أعتقد أن ابن عباد يخاطر بنفسه ، فيستجلب غضب المتنبي فينظمها . وقد قرّر ذلك أيضاً المستشرق : بلاشير^(١) .

وأما أنه كتبها قبل موت ابن العميد فوجه ترجيحي له أن صاحب عندما كان يذكره لا يقول بعد اسمه : « رحمه الله » ، وهو أقل ما ينبغي أن يقوله صاحب لو أن ابن العميد كان قد مات .

وكان « ابن العميد » نفسه كثير الانتقاد لأبي الطيب^(٢) ، وربما أراد صاحب بذلك أن يرى ابن العميد مدى موافقة صاحب له في رأيه في الشاعر .

ولذلك لا أتفق مع الأستاذ بلاشير الذي جعل تأليف رسالة صاحب حول سنة ٣٦٤ هـ^(٣) .

والذي أرجحه أيضاً أن القاضي الجرجاني لم يؤلف كتابه عقب تأليف صاحب رسالته ؛ لأنّ ما قاله له بعض أهل نيسابور في كتاب الوساطة ، وهو :

أيا قاضياً قد دنت كتبه وإن أصبحت داره شاحطه^(٤)
كتاب الوساطة في حسنه لعقد معاليك كالواسطه^(٥)
يرجح أن المؤلف كان قد تولى منصب القضاء ، وهو قد تولى هذا المنصب ،

(١) ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين ص ٦ .

(٢) النقد النجدي عند العرب ص ٢٠٦ .

(٣) ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين ص ٦ .

(٤) شاحطة : بعيدة .

(٥) معجم الأدباء ١٤ : ١٩ .

على ما أرجح بعد أن صار الصاحب وزيراً . والصاحب لم يتول هذا المنصب إلا سنة ٣٦٦ هـ (١) .

وقد صار لقب القاضى ملائمة للمؤلف الوساطة ما بقى من عمره . فلا سبيل إلى القطع بأنه ألفه وهو قاضى فى حياة الوزير الصاحب .

بل إن إيراد لبيت الوزير الذى استشهد به فى باب التصحيح (٢) مسبوفاً باسم الصاحب . وهو إسماعيل بن عباد . من غير أن يلقبه بالوزير - قد يوحى بأن كتاب « الوساطة » ألف بعد موت الصاحب . وأن الوزير أصبح فى ذمة التاريخ . يتحدث المؤلف عنه . كما يتحدث عن الشعراء السابقين .

وليس فيما بين يدي من المراجع ما يجعلنى أقطع فى ذلك برأى .

ويظهر أن كتاب « الوساطة » نال حظاً كبيراً من الشهرة يصفها الثعالبي ؛ إذ يقول : « فسار الكتاب مسير الرياح ، وطار فى البلاد بغير جناح » (٣) .

كما يصف مؤلفه بقوله إنه « أحسن وأبدع . وأطال وأطاب . وأصاب شاكلة الصواب . وأعرب عن تبخره فى الأدب وعلم العرب . وتمكنه من جودة الحفظ وقوة النقد » .

(١) الصاحب بن عباد ص ٢١ .

(٢) الوساطة ص ٤٥ .

(٣) يتيمة الدهر ٤ : ٤ .

٢ - آراؤه في النقد الأدبي

كانت الوساطة بين المتنبي وخصومه مجالا عرض فيه القاضي آراءه في النقد الأدبي ؛ ليتخذ ذلك قاعدة يبني عليها أحكامه في المتنبي وغيره من الشعراء ؛ وهذه بعض آرائه :

(١) إنتاج الشعر :

وأول ما عرضه من ذلك رأيه في الخصائص التي لا بد منها لإنتاج الشعر ، وأنها : الطبع ، والذكاء ، والرواية ، ثم تكون الدربة مادة له . وقوة لكل واحد من أسبابه . فن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز ، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان ^(١) .

وإذا كان القاضي قد جعل الشعر علماً من علوم العرب ، فإن التفرقة بين العلم والفن لم تكن معروفة في عصره . ولذلك ينبغي ألا نفهم من « العلم » في كلامه ما نفهمه اليوم من هذه الكلمة .

ونظرة القاضي صائبة إلى مدى بعيد ؛ فالشاعر لابد له من هبة تولد معه ، ولا يستطيع اكتسابها . والشعراء يختلفون في هذه الهبة أو الطبع ، كما سماه الجرجاني . فمنهم فياض الطبع ، ومنهم من هو ذو هبة محدودة .

وأما الذكاء فبه يلمح الشاعر ما لا يلمح غيره من الناس ، ويدرك من الصلات والمفارقات ما لا يدركه سواه ؛ وبذلك يتميز عن غيره ، ويتفرد بألوان من الإحساسات والمشاعر .

ويختلف الشعراء في الذكاء أيضاً ، فمنهم الأملعي المتوقد ، ومنهم دون ذلك . ويريد القاضي بالرواية أن يعيش الشاعر مع النصوص الأدبية ، لصقل

(١) الوساطة ص ١٤ .

طبعه وذكائه ، ولذا كانت حاجة المحدث إلى الرواية أمست ، واحتياجه إلى كثرة الحفظ أظهر ؛ لأن المطبوع الذكي لا يمكنه تناول ألفاظ العرب إلا رواية ، ولا طريق للرواية إلا السمع ، وملاك الرواية الحفظ ، وبالرواية يبلغ الشاعر حظاً كبيراً من براعة القول .

وقد أدرك النقاد ما لمخالطة النصوص الأدبية من أثر في الشاعر ، حتى عدها ابن خلدون العنصر الأساسي لتكوين ملكة البلاغة ، إذ يقول : « وهذه الملكة إنما تحصل بممارسة كلام العرب ، وتكرره على السمع ، والتفطن لخواص تركيبه » (١) .

وما زلنا إلى اليوم نؤمن بأثر حفظ النصوص الأدبية ، ودراستها في صقل أسلوب الشاعر ، وتهذيب لغته .

وبالدربة يظهر الطبع الكامن ، ويبلغ أشده ، وبدونها يذبل ذلك الطبع ويذوى ، كبذرة أهمل أمرها . فلم تنبت .

وإذا كان لنا أن نضيف شيئاً إلى ما ذكره القاضي فذلك هو الثقافة الواسعة التي تمد الشاعر بما يزيد إحساسه عمقاً ، وشعوره قوة وسعة .

(ب) اختلاف الشعر :

وباختلاف حظوظ الشعراء من الأمور الأربعة التي ذكرها ، وهي : الطبع والذكاء والرواية والدربة ؛ يختلف الشعراء في الإجابة والتبريز . أما رقة الشعر وصلابته فمراجعهما ثلاثة أمور :

أولها : اختلاف الطبائع ، وتركيب الخلق ، فإن سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع ، ودماثة الكلام بقدر دماثة الحلقة ، وأنت ترى ذلك ظاهراً في أهل عصرك وأبناء زمانك : ترى الجاني الحلف منهم كز الألفاظ ، معقد الكلام ،

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥١٦ .

وعر الخطاب ، وتحسّن بذلك أيضاً في صوته ونغمته ، وفي جرسه ولهجته ^(١) .
 وثانيها : البداوة ، فمن شأنها أن تحدث بعض ذلك ؛ ولذلك تجد شعر
 عدى ، وهو جاهلي ، أسلس من شعر الفرزدق ورجز ربيعة ؛ للملازمة عدى
 الحاضرة ، وبعده عن جلافة البدو وجفاء الأعراب ^(٢) ؛ ولذلك نرى الشعراء
 يختارون الكلام اللين السهل بعد مجيء الإسلام ، واتساع ممالك العرب ، وكثرة
 الحواضر ، ونزوع الناس من البوادي إلى المدن ^(٣) .
 وثالثها : الغرض الشعري ؛ فإنك ترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبيل
 العاشق المتيم ، والغزل المتهالك ^(٤) .

ومعنى ذلك أن بعض أغراض الشعر يفرض الرقة في معالجته كالغزل مثلاً ؛
 لأن القاضى يرى ألا تجرى أنواع الشعر كله مجرى واحداً ، بل ينبغي أن تقسم
 الألفاظ على رتب المعاني ؛ فلا يكون الغزل كالفخر ، ولا المدح كالوعيد ،
 ولا الهجاء كالاستبطاء ، ولا الهزل كالجد ، ولا التعريض مثل التصريح ،
 بل ترتب كلاً مرتبته ، وتوفيه حقه ؛ فتلطّف إذا تغزّلت . وتفخّم إذا افتخرت ،
 وتتصرّف للمديح تصرّف مواقعه ؛ فإن المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن
 المدح باللباقة والظرف ، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام ؛
 فلكل واحد من الأمرين نهج يخصّه ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه ^(٥) .

(٢) المثل الأعلى للشعر :

صوّر القاضى الجرجاني ما يراه مثلاً أعلى للشعر ، وأنّ ذلك يتحقق
 بثروط تكون في اللفظ والأسلوب ، وصفات يتسم بها المعنى .

(١) الواسطة ص ١٧ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) المرجع السابق نفسه .

(٥) الواسطة ص ٢٣ .

أما تلك التي تكون في المعنى ، فألا يكون مبتدلاً^(١) ، وأن يكون صحيحاً شريفاً ، مصيباً في الوصف ، مقارباً في التشبيه ، إنسانياً يجري على الألسن مثلاً وحكمة^(٢) . ولم يفسر القاضي ماذا يريد بالابتدال ، ولا ما يقصده بالشرف ؛ وربما كان مراده منهما البعد عن المعاني الدارجة الشائعة بين الناس ؛ فإننا نرى من الأمثلة التي جاء بها قول البحترى :

أجْدُكَ ما يَنْفُكُ يسرى لزينبا خيال إذا آب الظلام تأوَّبا^(٣)
سرى من أعلى الشام يجلبه الكرى هبوب نسيم الرّوض تجلبه الصّبا
وما زارنى إلا وَلَيْهْتُ صباة إليه ، وإلا قلت : أهلاً ومرحباً
وليلتنا بالجزع بات مساعفاً يرينى أناة الخطو ، ناعمة الصّبا
أضرت بضوء البدر ، والبدر طالع وقامت مقام البدر لما تغيبا
ولو كان حقاً ما أتاه لأطفأت غليلاً ، ولا فتكت أسيراً معذباً
علمتلك إن منيت منيت موعداً جهاماً ، وإن أبرقت أبرقت خلباً^(٤)
فوا أنسى ! حتّام أسأل مانعاً وآمن خوَّاناً ، وأعْتَبِ مذنباً^(٥)

وبنظرة إلى هذا الشعر لا نرى معانيه مما تلوّكه ألسن العوام ، حتى إن الشاعر عندما أراد أن يعقد صلة بينها وبين البدر لم يلجأ إلى التشبيه المألوف ، ولكنه أحسّ بحبيته أجمل من البدر ، فإذا نظر إليها والبدر يتلأل في السماء ، يرى وجهها أبهى منه طلعة وأجمل ضياء ؛ فلا عجب أن أضاء له وجهها ظلمات السدف بعد أن غرب بدر السماء .

ولا ينبغي على هذا الاستنتاج إلا قول الشاعر لحبيته : أهلاً ، ومرحباً ، فهو من الأمور الدارجة التي لا ارتفاع فيها عن السوق والدّهماء ، ولكن للشاعر عذراً في ذلك ؛ فقد صوّر لنا ما وقع عندما رأى طيف الحبيبة .

(١) الوساطة ص ٢٦ . (٢) الوساطة ص ٣٢ ، ٣٣ . (٣) تأوب : رجع ليلاً .

(٤) الجهام : السحاب لا ماء فيه . والبرق الخلب : المطعم الخلف .

(٥) الوساطة ص ٢٥ .

ويكون المعنى مبتدلاً كذلك إذا تداوله الشعراء ، وأكثروا من ذكره ، كما نرى ذلك في عيون الجاحذر^(١) وعيون الغزلان^(٢) .

أما المعنى الإنساني فهو الذى يجد فيه الناس صدى لما يحول فى نفوسهم ، ومعبوراً عما يشعرون به ، فيجرب البيت الذى تضمن هذا المعنى على الألسنة ، ويسير فى الآفاق .

ولا ينبغي أن يغض المعنى من شأن الشعر إذا لم يكن دينياً ، « فلا وكانت الديانة عاراً على الشعر ، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر لوجب أن يحى اسم أبى نواس من الدواوين ، ويحذف ذكره إذا عدت الطبقات ، وكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية . . . ولكن الأمرين متباينان ، والدّين بمعزل عن الشعر »^(٣) . وتلك حرية فكرية لناقد من رجال الدين .

ولا يقبل القاضى الإحالة فى المعنى ، ولذلك لم يقبل قول أبى نواس : وأخفت أهل الشرك ، حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخلق ويقول إنه من المحال الفاسد^(٤) .

كما أنه لا يقبل الإفراط ، ويراه منقصة ذميمة ، وإن كان يرى القدماء قد أتوا به ، وجاء الذين بعدهم فرأوا سبيلاً مسلوكة ، وطالب المتأخر الزيادة ، ولم يقف عند حد المتقدم ؛ فاجتذبه الإفراط إلى النقص ، وعدل به الإفراط نحو الذم^(٥) .

وأما الاستعارة فلها قيمتها الكبرى فى البلاغة ؛ فهى أحد أعمدة الكلام ، وعليها المعول فى التوسع والتصرف^(٦) ، وتكسو الكلام بهجة وجمالاً^(٧) .

(١) الوساطة ص ٣٠ .

(٢) الوساطة ص ٣٠ ، ٣١ .

(٣) الوساطة ص ٦٢ .

(٤) الوساطة ص ٤٤١ .

(٥) الوساطة ص ٤٣٧ .

(٦) الوساطة ص ٤٤٢ .

(٧) الوساطة ص ٣٠ .

ويعترف القاضى الاستعارة بأنها ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ،
ونقلت العبارة فجعلت مكان غيرها ^(١) . ويفرق بينها وبين التشبيه الذى يجمع
بين الأصل والاسم المستعار ، كقول أبى نواس :

والحبّ ظهر أنت راكبه فإذا صرفت عنانه انصرفا
إذ المعنى : الحبّ كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه ^(٢) .

ويرى القاضى الجرجانى أنّ ملاك الاستعارة تقريب الشبه ، ومناسبة
المستعار له للمستعار منه ^(٣) .

وعلى هذا الأساس تكون الاستعارة جيدة ، وإذا خالفته كانت
مذمومة رديئة ، فإذا جاءتك الاستعارة كقول زهير :

وعرّى أفراس الصّبا ورواحله

وقول لبّيد : إذا أصبحت بيد الشمال زمامها

وقول ابن الطّبريّة :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطىّ الأباطح

فقد جاءتك الاستعارة المحببة إلى النفوس ^(٤) .

فإذا استمعت إلى قول أبى تمام :

باشرت أسباب الغنى بمدائح ضربت بأبواب الملوك طبولا

فاسدد مسامعك ، وإياك والإصغاء إليه ؛ فإنه مما يصدئ القلب ، ويطمس

البصيرة ، ويكدّ التريجة ^(٥) .

ويعيب القاضى على أبى تمام أنه هو الذى أخرج الاستعارة عن نهج

الاقتصاد الذى كان يجرى عليه الشعراء قبله ^(٦) .

(١) الوساطة ص ٤٠ .

(٢) الوساطة ص ٤٠ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) الوساطة ص ٣٣ - ٣٩ .

(٥) الوساطة ص ٣٩ - ٤٠ .

(٦) الوساطة ص ٤٤٢ .

ولا يزال هذا الأساس الذى اختاره صاحب الوساطة أساساً صالحاً للاستعارة .

أما عناية القاضى الجرجانى بالأسلوب وتقديره لأثره القوى فى النفس فبالغة حدّاً كبيراً ، وحسبك أن تسمعه يقول : « وإذا أردت أن تعرف موقع اللفظ الرّشيق من القلب ، وعظم غنائه فى تحسين الشعر ، فتصفح شعر جرير وذى الرّمة فى القدماء ، والبحترى فى المتأخرين ؛ وتبع نسيب ميمى العرب ، ومتغزلى أهل الحجاز ، كعمر ، وكثير ، وجميل ، ونصيب ، وأضرابهم . . . ثم انظر واحكم وأنصف ، ودعنى من قولك : هل زاد على كذا ؟ وهل قال إلا ما قاله فلان ! فإن روعة اللفظ تسبق بك إلى الحكم ، وإنما تفضى إلى المعنى عند التفتيش والكشف » (١).

ومعنى ذلك أن جمال الأسلوب هو أول ما يأسرك فى الشعر ، ويملك عليك نفسك ، أما المعنى فإنه يؤثر فيك بعد أن تقف لتفتش عنه وتكشفه .

وإذا كان القدماء يؤثرون الجزالة فى الألفاظ ، فإن « القاضى » يرى الزمن قد تغير ، كما أسلفنا ، وهو لذلك يؤثر السهل الرّشيق من الأساليب ، ولكنه لا يريد بالسهل الضعيف الرّكيك ، ولا بالرّشيق الخنث المؤنث ، بل يريد المنط الأوسط : ما ارتفع عن الساقط السّوقى ، وانحطّ عن البدوى الوحشى (٢) . كما يرى أن الأساليب يجب أن تتنوع بتنوع الأغراض والمقاصد (٣) .

ويؤثر القاضى الأسلوب الطّبيعى يسترسل فيه صاحبه مع الطّبع ، ويتجنب الحمل على نفسه والعنف بها (٤) . وقد يتوهم من ذلك أن الكلام الجيّد ما خرج عن طبع صاحبه ، وإن لم يكن هذا الطّبع مهذباً مصقولاً ، فقال : « ولست أعنى بهذا كلّ طبع ، بل المهذب الذى صقله الأدب ، وشحذته الرواية ،

(١) الوساطة ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) الوساطة ص ٢٣ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) الوساطة ص ٢٤ .

وجلته الفطنة ، وألم الفصل بين الردىء والجيد ، وتصوّر أمثلة الحسن والقبح^(١) .
وبرغم أن القاضي ، ربما وجد في الشعر الذى عنى صاحبه بإدخال الصناعة
فيه جمالا وفنونا من الحسن ، يرتاح أكثر ما يرتاح إلى الأسلوب البعيد عن
الصنعة والتخارف ، فتراه يروى قول أبى تمام :

دعنى وشرب الهوى ، يا شارب الكاس . فإننى للذى حسبيته حاسى
لا يوحشتك ما استعجمت من سقمى . فإن منزله من أحسن الناس
من قطع ألفاظه توصيل متهلكتى . ووصل الحافظه تقطيع أنفاسى
متى أعيش بتأميل الرجاء إذا ما كان قطع رجائى فى يدى يأسى
فإنه علق على هذه الأبيات ، فقال : « لم يخل بيت منها من معنى بديع ،
وصنعة لطيفة ؛ طابق ، وجانس ، واستعار ؛ فأحسن ؛ وهى معدودة فى المختار
من غزله ، وحق لها ؛ فقد جمعت على قصرها فنونا من الحسن ، وأصنافا من
البديع ؛ ثم فيها من الإحكام ، والمتانة ، والقوة ما تراه ؛ ولكنى ما أظنك
تجد له من سورة الطرب ، وارتياح النفس ما تجده لقول بعض الأعراب :

أقول لصاحبي والعيس تهوى بنا بين المنيفة فالضمار^(٢) :
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشي من عرار^(٣)
ألا يا حبذا نفحات نجد وريتا روضه غيب القطار^(٤)
وعيشك إذ يخل القوم نجدا وأنت على زمانك غير زار^(٥)
شهور ينقضين ، وما شعرنا بأنصاف لهن ولا سرار^(٦)
فأما ليلهن فخير ليل وأقصر ما يكون من النهار

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) المنيفة : ماء تقيم . والضمار : موضع .

(٣) الشميم : مصدر شم . والعرار : زهر أصفر طيب الرائحة .

(٤) نفح الطيب : انتشرت رائحته . والريا : الريح الطيبة . وغيب : بمعنى بعد . والقطار :

جمع قطر ، وهو : المطر .

(٥) زرى عليه عمله : عابه عليه .

(٦) السرار : آخر ليلة من الشهر .

فهو ، كما تراه بعيد عن الصنعة . . . سهل المأخذ ، قريب التناول ^(١) .
والقاضي يثنى على الشعر إذا خلا من الصنعة وبعد عن البديع ^(٢) .
ويرى أن ألوان البديع التي كانت تقع في شعر القدماء كان لها جمالها ،
وتتميز أبياتها عن أخواتها في الرشاقة واللاطف ؛ لأنها كانت تقع على غير تعمد
وقصد ، بل اتفاقاً في البيت بعد البيت ؛ وإنما الذي أفسدها هو تكلف
المحدثين الاحتذاء عليها ، والقصد إليها ، فأحسن بعض ، وأساء آخرون ^(٣) .
وقد أورد القاضي بعض ألوان البديع ؛ من طباق ، وجناس ، وتقسيم ،
وغيرها ، وهو لا يحمدها إلا إذا جاءت غير متكلفّة . « فع التكلف المقت ،
وللنفس عن التصنع نفرة ، وفي مفارقة الطبع قلة الحلاوة ، وذهاب الرنق ،
وإخلاق الديباجة » ^(٤) .

الأسلوب الجيد عند القاضي هو الذي خلا من التعقيد ، وفساد الترتيب ،
واضطراب النسيج والغموض . ولذلك كانت هذه العيوب مجال وقفات منه
في شعر المتنبي يلتمس له فيها المعاذير ^(٥) . وبعضها مما عيب به أبو تمام ^(٦) .
وقد سبق أن بينا رأيه في غموض أبيات المعاني « فليس في الأرض بيت
من أبيات المعاني لقديم أو محدث إلا ومعناه غامض مستر ، ولولا ذلك لم تكن
إلا كغيرها من الشعر ، ولم تفرد فيها الكتب المصنفة ، وتشغل باستخراجها
الأفكار الفارغة » ^(٧) .

ولأول مرة يصدر القاضي الجرجاني مثل هذا الحكم العام الذي تحرّز من
مثل إصداره في موضع آخر ؛ لأنه لم يطلع على شعر الأوائل والأواخر ^(٨) .

(١) الوساطة ص ٣١ - ٣٢ . (٢) الوساطة ص ٣٠ .

(٣) الوساطة ص ٣٣ .

(٤) الوساطة ص ١٨ .

(٥) الوساطة ص ١٧٥ .

(٦) الوساطة ص ٤٣١ .

(٧) الوساطة ص ١٥٦ .

(٨) الوساطة ص ٢٢ .

وأغلب الظن أن القاضي الجرجاني عمّم حيث ينبغي التخصيص ؛ لأننا إذا عددنا من أبيات المعاني حكم المتنبي وحكم غيره من الشعراء ، وجدنا كثيراً منها واضحاً لا يكلفنا عناء البحث والتنقيب .

وللقاضي الجرجاني بعد ذلك رأى في القصيدة المثلث ، فهي التي ترى فيها « تناسب أبياتها وازدواجها ، واستواء أطرافها واشتباها ، وملاءمة بعضها لبعض ، مع كثرة التصرف على اختلاف المعاني والأغراض » ^(١) .
ولعله يقصد بتناسب الأبيات وازدواجها ، التحام معانيها ، وشدة تماسكها ، ويريد باستواء الأطراف واشتباها ، وحدة نسج القصيدة من أولها إلى آخرها ، حتى يشبه بعضها بعضاً ، وذلك كله برغم اختلاف المعاني والأغراض .

(د) السرقة في الشعر :

يعدّ القاضي الجرجاني التعمق في معرفة هذا الباب ضرورياً لمن يريد أن يعد من جهابذة الكلام ونقاد الشعر ^(٢) .
وخلاصة رأيه في ذلك :

- ١ - أن الأمور المتقروّة في النفوس ، التي يشترك فيها الشاعر والمفحم ، كتشبيه الحسن بالشمس والبدر ، لا سرقة فيها ؛ لأنها مشترك عام الشركة ^(٣) .
- ٢ - وإن كان المعنى مخترعاً مبتدعاً ، ولكنه صار مستفيضاً متداولاً ، لا يعد مسروقاً كذلك ، لأنه استفاد على ألسن الشعراء . كتشبيه الفتاة بالغزال في جيدها وعينها ^(٤) .

(١) الواسطة ص ٣٠ .

(٢) راجع ما اقتبسناه من هذا الفصل في « منتخبات من آثاره » .

(٣) الواسطة ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٤) الواسطة ص ١٧٩ - ١٨٠ .

٣ - وتفاضل الشعراء في هذه المعاني المتداولة بزيادة يهتدى إليها أحدهم دون غيره ؛ فيربك المشترك المبتذل في صورة المبتدع المخترع . وبهذه الزيادة يصبح ملكاً لصاحبه ، فإذا أخذ منه عد مسروقاً ، وذلك كقول لبيد :
وجلا السيول عن الطلول كأنها زُبُرٌ تجددُ متونها أقلامها^(١)
والشعراء يشجعون على مثل هذه الزيادة ، ويمدحون بها^(٢) .

٤ - وإذا أخذ الشاعر معنى لغيره فزاد فيه زيادة حسنة ، أو اختصره إن كان مطوّلاً - فلا عيب عليه فيما فعل ، فإذا سمعت مثلاً قول أبي دهبيل الجمحي :

وكيف أنساك ؟! لا أيدليك واحدة عندي ، ولا بالذى أوليت من قيدَم
علمت أنه من قول النابغة :

أبي غفلتي أنى إذا ما ذكرته تقطع حزن في حشا الجوف داخل
أن تلادى إن نظرت . وشيكتي ومهرى ، وما ضمت إلى الأنامل^(٣)
وحبائك ، والعيس العتاق كأنها هيجانُ المها تردي ، عليها الرحائل^(٤)

قال القاضي : « فإذا أنصفت أبا دهبيل عرفت فضله ، وشهدت له بالإحسان ؛ لأنه جمع هذا الكلام الطويل في : « لا أيدليك واحدة عندي » ؛ ثم أضاف إليه : « ولا بالذى أوليت من قدم » ؛ فتم المعنى ، وأكدّه أحسن تأكيد^(٥) .

٥ - وإنما العيب نقل المعنى والكثير من الألفاظ^(٦) .

(١) الوساطة ص ١٨١ - ١٨٢ . وجلا عن بلده : خرج . والزبر : جمع زبور . وهو : الكتاب . وتجدد : من التجديد . والمتون : جمع متن ، وهو الظاهر .

(٢) الوساطة ص ١٨٣ .

(٣) التلاد : المال كان أو ولد في بيتك من قديم . والشكة : السلاح .

(٤) الحباء : انعطية . والعيس : كرام الإبل . والهيجان : الخيار . والمها : جمع مهاة ، وهي البقرة الوحشية . وردت الفرس : رجعت الأرض بجوارفها في سيرها .

(٥) الوساطة ص ١٨٣ ، وستعود إلى مناقشة القاضي في ذلك عند الحديث عن ذوقه .

(٦) الوساطة ص ١٨٥ .

٦ - على أنه ينبغي ألا يقصر الناقد السرقة على ما ظهر دون ما كمن ؛ بل عليه أن يدرك تناسب قول لبيد :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا يد يدماً أن تُردَّ الودائع
وقول الأَفوه الأودى :

إنما نعمة قوم مُتعةٌ وحياة المرء ثوب مستعار
وإن كان هذا ذكر الحياة ، وذلك ذكر المال والولد ؛ وكان أحدهما جعل
وديعة ، والآخر عارية ^(١) .

ويعرف تفنن الشعراء في السرقة ، فيكون البيت في النسيب ، فيأخذ الشاعر
معناه في بيت مدح مثلاً ، فقول كثير في الغزل :

أريد لأنسى ذكرها ، فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيل
أخذ معناه أبو نواس فقال مادحاً :

ملك تصور في القلوب مثاله فكأنه لم يحل منه مكان ^(٢)
بل إن من لطيف السرقة ما جاء على سبيل القلب كقول المتنبي :

أحبه وأحب فيه ملامة إن الملامة فيه من أعدائه
نقض ؛ قول أبي الشيص :

أجد الملامة في هواك الذيدة حباً للذكر ، فليلمني اللوم ^(٣)

٧ - ومن الواجب على الناقد أن يتثبت قبل أن يحكم بالسرقة ^(٤) ،
وأن يحكم بها بمجرد التشابه بين الألفاظ ^(٥) ، أو للعصبية والهوى ^(٦) .

٨ - ويرى القاضي أن السرقة داء قديم ، وكان أكثره ظاهراً كالتراريد ،
ثم تفنن المحدثون في إخفائه بالنقل والقلب وغيرهما ؛ ويلتمس القاضي العذر

(١) الوساطة ص ١٩٥ .

(٢) الوساطة ص ١٩٩ .

(٣) الوساطة ص ٢٠٠ .

(٤) الوساطة ص ٢٠٠ و ٢٠٨ .

(٥) الوساطة ص ٢٠٢ .

(٦) المرجع السابق نفسه .

لأهل عصره ومن جاء بعده إذا أخذوا عن السابقين : « لأن من تقدمنا قد استغرق المعاني ، وسبق إليها ، وأتى على معظمها » (١).

٩ - ومن أكبر العيوب عند القاضى الجرجاني السرقة والتقصير (٢).

وإذا ذكرنا القيد الذى ذكره القاضى الجرجاني من ضرورة الزيادة فى المعنى ، أو التجويد فى الأسلوب ، أدركنا أنه لا يمنع استفادة المحدث من أفكار سابقيه ، على ألا يكون كلا عليهم ، بل عليه أن يضيف إلى الميراث القديم جديداً ، فتتمو المعانى مع الزمن ، وتتجدد الأساليب .

كما أن فى دعوته إلى البحث عن السرقات الخفية ، وفى عيبه أن يعيش الشاعر على فتات موائد سواه - دعوة للشعاع إلى الاعتماد على أنفسهم ، والتفتيش عن مواهبهم ، حتى يبتكروا المعانى ، وينقبوا عنها .

(هـ) مذهبه التأثرى والذوق :

يعتمد القاضى الجرجاني اعتماداً كبيراً فى تقدير الأثر الأدبى على ما يحدثه هذا الأثر فى النفس ، وقيس الجودة بمقدار هذا الأثر ، كما يقيس الرداءة بمدى نبو القلب ونفوره ؛ فتسمعه يقول معلقاً على أبيات فى الغزل للبحترى :

« تأمل كيف تجد نفسك عند إنشاده ، وتفقد ما يتداخلك من الارتياح ، ويستخفك من الطرب ، إذا سمعته ، وتذكر صبوة إن كانت لك ، تراها ممثلة لضميرك ، ومصورة تلقاء ناظرك » (٣).

فهو يعتمد ، كما ترى ، على مقدار إحساس السامع بالطرب ، ومدى إثارته لعواطفه ، ولعل القاضى يرى أن سبب هذه الإثارة ، هو أن الأثر الأدبى يصور شعور السامع ، ويعيد إليه صوراً كامنة فى نفسه .

(١) الوساطة ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٢) الوساطة ص ٣٧ .

(٣) الوساطة ص ٢٦ .

ويقول في موضع آخر متحدثاً عن أبيات جيدة وأخرى رديئة : « إنه يميز بقبول النفس ونفورها ، ويستقد بسكون القلب ونبوّه » (١).

ولذلك أشاد القاضى الجرجاني بجمال الأسلوب ؛ لأنه أول ما ينفجأ القارئ كما سبق أن ذكرنا .

والشعر لا يؤثر في النفوس إذا احتاج إلى الجدل والمحااجة ، وإنما يعطفها عليه القبول والطلاوة ، ويقربه منها رونقه وحلاوته (٢).

والذى يحكم بجودة الشعر أو رداءته إنما هم النقاد الذين أوتوا ذوقاً صقله التهذيب وإدمان الرياضة ، وهبوا دقة في الفطنة ، وصفاء في القريحة ، ومقدرة على الغوص ؛ فلكل صناعة أهل يرجع إليهم في خصائصها ، ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها ؛ فقد يكون الشيء متقناً محكماً ، ولا يكون حلواً مقبولاً ، ويكون جيداً وثيقاً . وإن لم يكن لطيفاً رشيقاً ، وقد نجد الصورة الحسنة والخلقة التامة مقلية ممقوتة ، وأخرى دونها مستحالة مومقة (٣). والحكم في ذلك إنما هم أهل الصنعة المدربون .

ويعتمد هؤلاء النقاد في إصدار أحكامهم على ما منحوه من الذوق المرفه ، الذى أدمن على مخالطة النصوص الأدبية ، والتعرف على ما فيها من أسباب الجمال ؛ وهم لذلك يستطيعون تقويم الشعر ، ومعرفة جيده ورديئه .

وهؤلاء النقاد قد تمكنهم الحجاج من إبراز أسباب ما يرون من الصراب أو الخطأ (٤)، والكشف عن أسرار الجمال أو القبح .

وأحياناً يحسون بالأمر في قلوبهم ، ولكنهم لا يستطيعون الإفصاح عنه بألسنتهم ، كما حدث بين أحد المعترضين على أبى الطيب في قوله :

(١) الوساطة ص ٤٤٢ .

(٢) الوساطة ص ٩٦ .

(٣) الوساطة ص ٩٦ - ٩٧ .

(٤) الوساطة ص ٤٤٢ .

مسرّة^(١) في قلوب الطيب مفرّقها وحسرة في قلوب البَيْض واليلب^(٢) إذ جعل للطيب والبيض واليلب قلوباً ، لأن المتنبي يريد أن يقول : إن قلب الطيب مسرور ، لأنه يخالط مفرق شعرها ، في حين أن قلب الخوذة والدرع متحسر ؛ لأنها لا تلبسهما ، إذ هي لا تقاقل في ميدان القتال .
فرد عليه القاضي بأن ابن أحرر يقول :

ولمت عليه كل معصفة هوجاء ليس للبها زبر^(٣)
وما الفصل بين من جعل للريح لباً ، ومن جعل للطيب والبيض والدروع قلباً ؟ فلم يجر الخصم جواباً غير أن قال : أنا استبّرتُ ، ووجدت بين استعارة ابن أحرر للريح لباً ، واستعارة أبي الطيب للطيب قلباً برناً بعيداً ، وربما قصر اللسان عن مجازاة الخاطر ، ولم يبلغ الكلام مبلغ الهاجس^(٤) .

وقد استطاع القاضي الجرجاني أن يصل إلى الفرق بين الاثنين : « وذلك أن الريح لما خرجت بعصوفها عن الاستقامة ، وزالت عن الترتيب ، شبهت بالأهوج الذي لا مُسكّة في عقله . . . ولما كان مدار الأهوج على التباس العقل حسن من هذا الوجه أن يجعل للريح عقلاً »^(٥) .

وحيثما يحس الناقد بذوقه الجمال أو القبح ، فإذا سئل عن سبب حكمه أقام السائل مقام المتعنت ، وكان أقصى ما في وسعه أن يقول : موقعه من القلب أنطف ، وهو بالطبع أليق ، وربما حاجتك بظاهر تحسه النواظر ، وأنت تحيله على باطن تحصيله الضمائر^(٦) .

وليس كل ذوق يرضاه القاضي حكماً ، بل الذوق الذي أدمن الرياضة ، وكان صاحبه شديد الفطنة ، صافي القريحة ، بعيد الغرض^(٦) .

(١) اليلب : اندروع تتخذ من الجلود . والبيض : جمع بيضة ، وهي : الخوذة من آلات الحرب ، لوقاية الرأس . (٢) الوساطة ص ٤٤٣ . وزبره عن الأمر : منعه ، ونهاه عنه .

(٣) الوساطة ص ٤٤٣ . (٤) الوساطة ص ٤٤٤ .

(٥) الوساطة ص ٤٢٧ وارجع إلى النص في فصل المختار من آثاره .

(٦) المرجع السابق نفسه .

ويرى القاضى الجرجاني أن أشد ألوان النقد هو هذا الذى يحتاج إلى الذوق الموهوب وإدمان الرياضة . أما أقل الناس حظاً فى النقد فهؤلاء الذين يقفون عند الأمور التى لا تحتاج إلى ذرق كالاقتصار على سلامة الوزن ، وإقامة الإعراب ، وأداء اللغة ، وما فى الكلام من تجنيس وترصيع ومطابقة ، أو عند المعانى الغامضة ، لا يبالى ظهورها فى نظم مضطرب ، أو نسج مهلهل ، لا يقابل بين الألفاظ والمعانى ، ولا يرى الحسن إلا ما أفاده البديع وما جاء به التصنيع (١) .

ويكاد نقاد العرب يجمعون على أن الذوق المهذب المثقف هو الفيصل فى الحكم على النصوص الأدبية ، وإلى هذا الحد يقف القاضى الجرجاني ، حتى إذا جاء عبد القاهر لم يقف عند هذا الحد ، بل رأى أنه لا بد لكل كلام تجده حسناً من أن يكون لهذا الحسن مصدر معلوم ، وعلة معقولة ، وأن يكون هناك سبيل إلى التعبير عنه ، ودليل على صحة ما ادّعيته ، ويرى أن الإيمان بذلك يفتح باباً تطلع منه على فوائد جلية ، ويجعلك على بينة من العلم ؛ فلا تقبل دعوى من غير برهان ، ولا تدلى بحكم بلا دليل ، ولا يسألك السائل عن حجة يرد بها على الخصم ؛ فلا ينصرف عنك بما يقنعه ، ويكون كل ما يجده منك أن تحيله إلى نفسه ، وتقول له : إننى نظرت ، فرأيت فى الكلام فضلاً ومزية ، ووجدت لذلك أريحية ؛ فعليك أن تنظر ؛ لتعرف كما عرفت ؛ وينتج من ذلك أنه إذا استطاع أن يصل كما وصلت ، فقد آمن بما آمنت ، وإلا تناكرتما ، وكان فى نظرك ضعيف التأمل ، سيئ الاستنباط ، فاسد الذوق ، وكنت فى نظره فاسد التخيل .

ويؤكد عبد القاهر أنه من الآفة الزعم بأنه لا سبيل إلى معرفة العلة فيما به كان الكلام الجميل جيلاً ، ويرى ذلك توانياً وكسلاً من الناقد ، وأن عليه أن يبحث عن السبب حتى يهتدى إليه .

ومع أن عبد القاهر يعلم أن الناقد أحياناً لا يستطيع أن يصل إلى معرفة سبب الجمال - لا يرى ذلك وسيلة لليأس من الوصول إليه . ويدعو إلى أن يتخذ المرء ما يعرف وسيلة إلى ما لا يعرف ، وذلك أخرى من أن يسد باب المعرفة على نفسه ، ويمنعها من الفهم والتفهم ، ويعودها الكسل والهوiness (١) .

فليت شعري أكان عبد القاهر يحدّر من رأى أستاذه : القاضي الجرجاني من أن السائل عن أسرار الجمال متعنت . وأن ذلك أمر سبيل إدراكه البصيرة ، وقلما استطاع أن يفصح عنه اللسان (٢) .

إننا من غير ريب نتقل مع عبد القاهر خطوة إلى الأمام في النقد الأدبي إذ نحاول معرفة الأسباب ، ووضع القواعد لهذا الفن الرفيع .

٣ - ذوق القاضي الجرجاني

للقاضى الجرجاني ذوق صائب غالباً فيما يختاره للشعراء من جيّد الشعر ورديّه ، بل إنه عند ردىء الكلام يطلب إلى السامع أن يسدّ مسامعه . ويستغشى ثيابه ، حتى لا يرى ولا يسمع (٣) ؛ وعند القول الجيّد يعجب به الإعجاب البالغ ، ولنصغ إليه يعرض قصيدة لأبى تمام جمعت بين الجيّد والرديء فيدلّ في حكمه على ذوق نقي ممتاز ، فيقول : « ربما افتتح الكلمة وهو يجرى مع طبعه ، فينظم أحسن عقد ، ويختال في مثل الرّوضة الأنيقة ، حتى تعارضه تلك العادة السيئة (٤) ، فيتسنّم أوعر طريق ، ويتعسف أخشن مركب ، فيطمس تلك المحاسن ، ويمحو طلاوة ما قد قدّم ، كما فعل أبو تمام في كثير من شعره ، ومنه قوله :

(١) عبد القاهر الجرجاني ص ٨٩ - ٩٣ ، راجع إلى دلائل الإعجاز ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٢٢٦ وأسرار البلاغة ص ٢٦٢ .

(٢) راجع نص القاضي الجرجاني في فصل المنتخبات من آثاره . والوساطة ص ٤٢٦ .

(٣) الوساطة ص ٤٠ . (٤) يريد عادة الرّغبة في الاقتداء بالأوائل .

لو حار مرتاد المنية لم يجد إلاّ الفراق على النفوس دليلاً
قالوا: الرّحيل ، فما شككت بأنّها نفسى من الدنيا تريد رحيلاً
الصبر أجل غير أنّ تلمذاً في الحب أخرى أن يكون جميلاً
أتظننى أجد السبيل إلى العزّا وجد الحمام إذاً إلى سبيلاً
ردّ الجموح الصعب أسهل مطلباً من رد دمع قد أصاب مسيلاً
إنى تأملت الذوى ، فوجدتها سيفاً على أدن الهوى مسلولاً
يقول القاضى : « فهو ، كما تراه ، يعرض عليك هذا الديباج الخسروانى ،
والوشى المنعم ، حتى يقول :

لله درك أى معبّر قفّرة لا يوحش ابن البيضة الإجفيل^(١)
أو ما تراها ؟ لا تراها هزة تشأى العيون تعجرفاً وذميلاً^(٢)
فنعص عليك تلك الالذّة ، وأحدث فى نشاطك قفّرة^(٣) .

والقاضى الجرجانى يقف عند هذه الحدود ، لا يتجاوزها إلى بيان الأسرار ،
وتحليل الأسباب التى من أجلها استحسن ذوقه أو استهجن .

وهو مصيب فيما يهديه إليه ذوقه من القواعد ، ولكن لك أن تأخذ على هذا
الذوق أنه أحياناً لا يكون صائباً فى حكمه على الشعر ؛ فقد رأيناه مثلاً يدعو
إلى الاسترسال مع الطبع ، ونبد التكلف ، وهو محق فيما يدعو إليه ، ولكننا
رأيناه يمدح قطعة أبى تمام : « دعى وشرب الهوى يا شارب الكاس . . . »^(٤)
وهى مقطوعة غلبت فيها الصناعة ، حتى طمست المعنى ، وأزهقت
روحه ، فبدا تافهاً هزيباً . ونخذ لذلك مثلاً شرب الهوى ، والشاعر بجاء به

(١) قال محققا الوساطة نقلاً عن التبريزى : خرج إلى صفة الناقة بغير ذريعة إلى الخروج ؛
يقول : لله درك أيّها الناقة أى معبر قفّرة أنت ، أى تعبر عليك القفّرة ، ولا يوحش هذا المعبر ابن
البيضة ، أى الظليم ، والإجفيل : الكثير الإجفال .
(٢) قال المحققان أيضاً : التعجرف : النشاط فى السير . والذميل : نوع من السير ، وتشأى :
تسبق .

(٣) الوساطة ص ٢١ - ٢٢ .

(٤) راجع ص ٥٨ من هذا الكتاب .

ليتجانس مع شارب الكاس ، والهوى يغزو القلوب ويأسرها ، ولكن الناس لا يشربونه ، وزاد الشاعر الأمر كرباً عندما جعل نفسه تحسو الهوى كما يحسو شارب الخمر كأسه ، ولم يدفعه إلى ذلك إلا رغبة في التجنيس المتكلف .

وقف في البيت الثانى عند استعجام سقمه ؛ لتبحث طويلاً عن معناه ، وربما أراد به عدم إدراك سببه ، وعند الشطر الثانى ، لتعرف أن المنزل هنا مصدر ميمى بمعنى النزول ، ومن للسببية ، وأن المعنى : السقم الذى حل به ولم يعرف صاحبه سببه إنما نزل به من أجل أحسن الناس ؛ فأى وقفة طويلة ، وأى معنى تافه .

وفى البيت الثالث طباق تلمسه الشاعر فى الشطرين . ولكنك لا تدري معنى لقطع الألفاظ ، ووصل الألفاظ ، إلا أنها مثال لطباق والجناس .

والبيت الرابع معناه : متى أرجو إذا كان اليأس مستولياً على قطع الرجاء ، ويؤول المعنى إلى : متى أرجو إذا كنت يائساً . وليس هو بمعنى ذى قيمة يستحق أن يكون شعراً . وليس فى البيت سوى هذا الطباق بين اليأس والرجاء . كما أنه عد من الشعر الجيد قول الشاعر :

والورد فيه كأنما أوراقه نزعت ، ورد مكانهن حدود
فقد علق عليه بقوله : « لم يزد على ذلك التشبيه المجرد ، لكنه كساه هذا اللفظ الرشيق ، فصرت إذا قسته إلى غيره وجدت المعنى واحداً ، ثم أحسست فى نفسك عنده هزة ، ووجدت طربة تعلم لها أنه انفرد بفضيلة لم ينازع فيها » (١) .

ولست أدري من أين تأتى الهزة ، أو توجد الطربة . ومجرد الشعور بانتزاع أوراق الورد يثير فى النفس الألم ، ويصور لها منظرًا حزيناً لا يخفف منه أن يوضع مكان الأوراق حدود .

وإذا كان التشبيه يراد به أن يكرر مصباحاً يضئ فكرة الشاعر ، وينقل إحساسه إلى غيره من السامعين فلا تصور الخلد مقتطعاً من الجسم وموضوعاً مكان أوراق الورد ، لا يؤدي له لة التشبيه في تعميق الإحساس ، وتصوير الشعور ؛ لأن الناس لم يألّفوا رؤية هذا المنظر .

ولذلك لا أوافق القاضي الجرجاني في استحسان قول عليّ بن الجهم :
عشية حيائي بورد كأنه خدود أضيفت بعضهم إلى بعض^(١)
لأن الناس لا يرون في الطبيعة خدوداً يضاف بعضها إلى بعض .

ولكنه كان دقيق الملاحظة عندما أورد قول ابن المعتز :
بياض في جوانبه احمرار كما احمرت من الخجل الخدود
فإنه رأى أن الشاعر لو اتفق له أن يقول : حمرة في جوانبها بياض ، لكان قد طبّق المفصل ، وأصاب الغرض ، ووافق شبه الخجل^(٢) .
ولكنه إذا كان لنا أن نعرض على ذوقه في بعض ما استحسنته أو استقبّحه ، فإن النتائج التي وصل إليها صحيحة مسلم بها في أغلب الأحيان .

٤ - أسلوبه

طبق القاضي الجرجاني نظريته في الاسترسال مع الطبع على نثره ، فترك قلمه على سجيته ، مؤثراً الحرية في الصياغة الفنية ، لا يلتزم سجعاً ولا ازدواجاً ، إلا حيث يجيئان طبيعيين ، لا تكلف فيهما ، ولا إسراف .

وإذا كان في كتاب الوساطة شيء من السجع ، فإنك تلمس أنه لم يجئ مقتسراً في مكانه ؛ على أنه لم يلتزمه ، كقوله : « كم من فضيلة لو لم تسترها المحاسدة لم تبرح في الصدور كامنة ، ومنقبة لو لم تزعجها المنافسة لبقيت

(١) الوساطة ص ١٨٢ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

على حالها ساكنة ! لكنها برزت ، فتناولتها ألسن الحساد تجلوها ، وهى تظن أنها تمحوها ، وتشهرُها ، وهى تحاول أن تسترها ؛ حتى عثر بها من يعرف حقها ، واهتدى إليها من هو أولى بها ، فظهرت على لسانه فى أحسن معرض ، واكتست من فضله أزين ملابس ، فعادت بعد الحمول نابهة ، وبعد الذبول ناضرة ، وتمكنت من بر والدها ، فنوّمت بذكره ، وقدرت على قضاء حق صاحبها ، فرفعت من قدره : « وعسى أن تكرهوا شيئاً ، وهو خير لكم » (١) .
ولكن القاضى لا يلبث أن يدع قلمه يسترسل كما يشاء ، وينسى السجع وغيره من ألوان الزخارف .

وقد احتفظ القاضى الجرجانى فى ذلك بشخصيته ، فلم يتأثر فى ذلك بالصاحب بن عباد الذى كان ولوعاً بالسجع إلى درجة سبق بها جميع من تقدمه من الكتاب (٢) ؛ ولا بغيره من الكتاب الذين التزموا السجع لا يخرجون عنه إلا قليلاً ، كبديع الزمان والحوارزمى ، ولا الذين يؤثرون الازدواج ، ويسجعون من حين إلى حين كابن العميد .

ولم يكن القاضى وحده فى عصره هو الذى تحرّر من ربق السجع ، بل كان من المتحرّرين كذلك المرزبانى صاحب الموشح ، والأصفهائى صاحب الأغاني (٣) .

وما بقى من كتاب « تهذيب التاريخ » يجرى أيضاً على طريقة الاسترسال الذى لا يعرف السجع ، ولا يعنى بغيره من باقى المحسنات (٤) .
وأريد أن أضيف إلى وصف خصائص أسلوبه أن العبارات القضائية تندس فيه هنا وهناك ؛ فتسمعه يقول : « عجّلت بالحكم قبل استيفاء الحجة ، وأبرمت

(١) الوساطة ص ١ .

(٢) صاحب بن عباد ص ١٣١ .

(٣) النثر الفنى ١ : ١١٣ .

(٤) راجع جزءاً من هذا الكتاب فى فصل المختار من آثاره .

القضاء قبل امتحان الشهادة»^(١) ، ويقول : « قد وفينا لك بما اقتضاه شرط الضمان ، وزدنا . وبرأنا إليك مما يوجب عقد الكفالة ، وأفضلنا »^(٢) ، ويقول : « ومن أنصف حـجـزـه حضور البيـنة عن المنازعة »^(٣) .

٥ - منهجه في كتاب الوساطة

وضع القاضي الجرجاني كتاب الوساطة رسالة واحدة ذات مقالة واحدة . لا أبواب فيها ولا فصول ؛ بدأها بالحديث عن التفاضل ، وأنه داعية التنافس ، وهو سبب الحسد ، مع أن واجب العلماء والأدباء أن يتواصلوا . ويحمي بعضهم عرض بعض . وأن يعدلوا في أحكامهم (ص ١ - ٢) .

ثم ذكر موقف أهل الأدب من المتنبي ، وأنهم فئتان : واحدة تطنب في تقريظه ، وأخرى تجتهد في إظهار عيوبه . وإخفاء محاسنه . مع أن لكل عالم هفوة . ولكل شاعر سقطعة . وهنا يورد عدداً من أغاليط الشعراء (ص ٣ - ١٤) . ويتحدث بعدئذ عن الشعر ، ولـيـمّ يتفاوت الشعراء في الجودة والإحسان . وأن الشعر يختلف باختلاف البيئة والطبائع ، وأن محاولة التكلف مفسدة للشعر . كما فعل أبو تمام (ص ١٤ - ٢٢) .

ويصف المؤلف الأسلوب الممتاز عنده ، ويورد أمثلة لهذا الأسلوب من شعر البحتري ، وشعر جرير . ويتحدث عما يرد في الأسلوب من ألوان البديع ، وكيف تكون الاستعارة حسنة حيناً وسيئة حيناً آخر (ص ٢٣ - ٤٧) .

ولكن القاضي الجرجاني لا يكثر من الحديث على المحسنات البديعية ، لأن المتنبي لم يكن من المغرmin بها ، وإنما كانت تجيء منه عفواً ، ولكنه

(١) الوساطة ص ٧٩ .

(٢) الوساطة ص ١٧٣ .

(٣) الوساطة ص ٤٣٣ .

أكثر من الحديث على الاستعارة ، لأن أبا الطيب نُسب إليه كثير من الاستعارات الرديئة ، وكانت الاستعارة شائعة في أشعاره .

وكل ذلك مقدمات يمهّد بها المؤلف لحديثه عن المتنبي وخصومه .
ويذكر أنّ خصومه رجّالان : أحدهما لا يعترف بفضل المحدثين ؛
وثانيهما يظلم المتنبي لأنه يعترف بفضل بعض المحدثين ، ولكنه ينكر فضل
أبي الطيب ؛ وهنا يورد المؤلف بعض كبار الشعراء المحدثين ؛ ليبين نقائصهم
(ص ٤٨ - ٧٨) .

ويذكر ما عيب به شعر المتنبي ، ويأتى بأمثلة كثيرة من شعره المعيب
(ص ٧٩ - ٩٧) .

ويعقب على ذلك بإيراد أمثلة من شعره الجيّد . ويورد من ذلك قدراً
كبيراً (ص ٩٧ - ١٧٤) .

ويعود إلى عيب السرقة . فيقف محدّداً لها ، مبيناً متى تكون ، ومتى لا يهتم
الشاعر بها ، ويضرب أمثلة كثيرة من سرقات الشعراء ، ويذكر رأيه في
السرقة (ص ١٧٤ - ٢٠٨) .

ويورد ما نسب إلى أبي الطيب من السرقات ، معلقاً عليه أحياناً . وصامتاً
أحياناً كأنه يقرّر السرقة بهذا الصمت (ص ٢٠٩ - ٤٢٥) .

ويعود المؤلف لاستكمال بعض المآخذ على أبي الطيب ، ويلتمس المعاذير له
(ص ٤٢٨ - ٤٤٦) .

ويأخذ بعدئذ في دراسة موضوعيّة ، يعرض فيها بعض الأبيات التي عيبت
على المتنبي ، ويدرسها بيتاً بيتاً ، ملتصقاً العذر له في كثير مما وقع فيه
(ص ٤٤٦ - ٤٩٢) .

ويبدو من عرضنا لكتاب الوساطة أنه متماسك مرتبط الأجزاء بعضها ببعض ،
وأنّ المقدمات التمهيدية التي تحدّث فيها عن تطور الشعر لها صلة وثيقة

بالمُنتبى ؛ لأنها ترى أنه من الخطأ قياس المنتبى بالشعراء الأقدمين ، وإنما يقاس ، إذا توخينا العدالة ، بأمثاله من الشعراء المحدثين .
كما يبدو أن مؤلف الكتاب جعل دفاعه عن المنتبى ألواناً ثلاثة :
أولها : مبدأ المقاصّة ، أى وزن الحسنات بالسيئات لنرى أن جانب الحسنات أرجح .

وثانيها : أن أمثاله من عظماء الشعراء المحدثين لهم مثل أغلاطه ، فلم ينفرد دونهم بالحساب والمؤاخذة وإغفال أمر الجيد من شعره .
وثالثها : التماس الأعذار فيما أخطأ فيه إن كان له عذر .
كما يبدو أيضاً أن المؤلف أطال الوقوف عند ما أُخِذَ على أبي الطيب ، يبين عيوبه ، ويذكر ما قد يكون له من توجيه ، وإذا طبقنا رأى المؤلف في أن الشعر لا يكون مقبولاً بالمحاجة والخاصمة ، أدركنا أن هذا الشعر الذى دافع عنه القاضى لا يمكن أن يرتفع إلى درجة الشعر الجيد .
ولم يقف المؤلف عند الشعر الجيد لأبى الطيب يبين أسباب روعته ، ونواحي الجمال فيه ، ولو أنه فعل لكان ذلك من أقوى وسائل الدفاع عن المنتبى ، وكان المجال واسعاً أمامه للموازنات بينه وبين غيره . ولأنه حتى في الموازنات القليلة التى عقدها بينه وبين غيره ، لم يقف طويلاً ؛ ليبين فضل أبى الطيب ، ومقدار سموه في الناحية التى اتجه إليها ، ولكنه كان يلمس ذلك لمسات مسرعة .

٦ - شعره

كان القاضى الجرجاني يعدّ نفسه من أهل الأدب^(١) ؛ فكان له رأيه في علم من أعلام الشعر هو المنتبى ؛ ويعدّ نفسه شاعراً شرود الشعر ، يعجب الناس بشعره ، ويستعبرون منه ما راقهم :

(١) الواسطة ص ٣ .

ولكننى أرمى بكلّ بدبعة يبتن بألباب الرجال لواعبا
تسير ، ولم ترحل ؛ وتدنو ، وقد نأت وتكسب حُفَظَ الرجال المراتبا
ترى الناس : إمتاً مستهماً بذكرها ولوعاً ، وإما مستعيراً وغاصبا (١)
وكان مثله الأعلى فى الشعر أن يجمع بين أبى تمام والبحترى ، فيأخذ من
الأول دقة المعنى ، ومن الثانى السهولة والرفقة :

أحييت حبيباً والوليد ، ففصلاً منها وشائع (٢) نسجها تفصيلاً
فأفادها الطائى دقة فكره والبحترى دماثة وقبولاً (٣)
وبالشعر سجل رأيه فى الشعر الرائع القوى ؛ فرأيناه يقيسه بمقدار ما يتركه
فى النفس من أثر ؛ وهو يذكرنا بمذهبه التأثرى الذى سبق أن شرحناه ، فليس
الشعر إلا ما أثار عواطف الممدوح ، ووجد فيه المشتاق صدى لعواطفه
ومشاعره ، ومسح على قلب الغاضب ، فألانه وأرضاه ، وكما صرح فى الوساطة
برأيه فى الشعر الجليل ، وأنه الذى يسترسل فيه صاحبه مع الطبع ، لا يقتصر
الأسلوب ، ولا يتكلف العبارات تكلفاً ؛ وندد بصنف من الشعراء يجعلون
همتهم اقتناص القوافى ، واتخاذها نبراساً يقودهم إلى النظم ، فيكون عملهم نظم
أبيات لا يجمع بينها جامع ، ولا يربطها معنى ، وبصنف آخر يرضى بميسور
القول ، ويقنع بالضعيف . وترى ذلك إذ يقول :

وما الشعر إلا ما استفزّ ممدّحاً وأطرب مشتاقاً ، وأرضى مغاضباً
أطاع ؛ فلم توجد قوافيه نفراً ولم تأته الألفاظ حسرى لواعباً (٤)
وفى الناس أتباع القوافى : تراهم يبتئون فى آثارهنّ المقانبا (٥)
إذا لحظوا حرف الروى تبادروا وقد تركوا المعنى مع اللفظ جانباً

(١) يتيمة الدهر ٤ : ١٩ .

(٢) الشائع : جمع وشيع ، وهو : علم الثوب .

(٣) يتيمة الدهر ٤ : ١٩ . ودمث : سهل . وحبيب والطائى : أبو تمام .

(٤) حسرى : متعبة . واللغب : الإعياء الشديد .

(٥) يتيمة الدهر ٤ : ١٩ .

وإن مُنِعوا حرَّ الكلام تطرّقوا حواشيهِ، فاجتاحوا الضّعيف المقاربا^(١)
ويرى الشعر الرقيق يفعل بالنفوس فعل الحمر ، وإن لم تسكر :
كفتنا حميتا الحمر رقّة لفظها وأمننا تهذيبها هفوة السكر
وقد تنوعت أغراض الشعر عنده : بين غزل ، ومدح ، وشكوى ، وإخوانيات
وحكمة. وبرقّ شعره عندما تتدفق عواطفه، ويكون هدفه الإفصاح عن وجدانه.
وأغلب غزله مقطوعات يعبر بها عن إحساس بلون من ألوان الجمال ،
وبرغم قصر هذه المقطوعات تدل على أنّ القاضى من المفتونين بالحسن ،
المغرمين بالحدود الناضرة . والعيون الساحرة . والقدّ الأديف ، والقبلة الممتعة ،
وله فى الشوق إلى ديار الحبيب والحين إلى أيام السعادة بلقىاه شعر يفيض حرارة
وقوة . وهو يقسم بألوان الجمال عندما يريد أن يؤكد كلامه .

ويسير في مدحه على النظام التقليدى يبدوّه بالغزل ، ويتخلّص منه إلى
المدح ، وهو يجتهد فى حسن التخلّص . بالربط الوثيق بين الغزل والمدح
كقوله :

ولمّا تداعت للغروب شمسهم وقمنا لتوديع الفريق المغرب
تلقّين أطراف السجوف بمشرق لمن . وأعطاف الخلدور بمغرب^(٢)
فما سرن إلا بين دمع مضّيع ولا قمن إلا بين قلب معذب
كأنّ فؤادى قرنُ قابوس راعه تلاعبه بالفيالق المتأشب^(٣)
ويمضى بعدئذ فى مدح قابوس بن وشمكير .

(١) المرجع السابق ص ٢٠ .

(٢) شرح هذا البيت الأستاذ عبد الحائق عمر (رحمه الله) فى معجم الأدباء ٤ : ٣٠ فقال :
السجوف : الستائر . والمشرق : صفة لمحذوف ، أى دمع مشرق ، من أشرقه ، بمعنى أغصه . ومغرب
صفة لمحذوف : أى قلب مبالغ فى الحزن . يريد أنهن عند الصعود ، وتلقى السجوف بكين ؛ فلما صرن فى
أعطاف الخلدور حزنّت قلوبهن ، فهى معذبة . والبيت بعده يوضح ما قلنا .

(٣) معجم الأدباء ٤ : ٣٠ والقرن : نظيرك فى الشجاعة . راعه : أفرّعه . والفيلق : الجيش
العظيم . والمتأشب : المختلط . يصف فؤاده المضطرب إذ يشتد خفقانه بمنازل قابوس فى ميدان القتال
عند ما يفرّعه ما يراه من فعل قابوس فى الجيش الضخم المختلط ، فإن منازل يشتد خفقان قلبه .

وهو مغرم كثيراً بالتشبيه ، ينتقل به من الغزل إلى المدح .
وأكثر ما بقي لنا من مدائحه في الصحاح بن عباد ، يمدحه حيناً ببلاغة
القول ، وجمعه بين المعاني المبتكرة ، والألفاظ المتألّفة ؛ وحيناً برفعة المكانة ،
وأنه يقسم على الورى أرزاقهم ، وحيناً يتحدث عن أفضاله وأياديه التي له في
رقاب الناس ، وأنا يثني على شجاعته وكرمه ، وأنا يصف عشق الوزير
للمجد ، وأنا آخر يثني على خلقه الرقيق . ومؤرخو الصحاح يؤكدون له هذه
الصفات التي جعلت عهده كما قال القاضي طلقاً طيب الظلال . كما واسى
القاضي الصحاح في علته ، وهناه بالشفاء من مرضه .

وقد أثني النعالي على الشعر الذي أنشأه القاضي في الصحاح ، وقال
عنه : « وسيّرفيه قصائد أخلصت على قصد (١) ، وفرائد (٢) أتت من فرد ،
وما منها إلا صوب العقل (٣) ، وذوب (٤) الفضل » .

وقلّ مدحه لغير الصحاح ، فنراه يثني على قابوس بن وشمكير بالشجاعة
والبلاغة ، وعلى بعض ممدوحيه الآخرين بسمو الخلق ، والكرم ، وحب المجد ،
مما لا يخرج عن المدح الموروث .

وإذا كان القاضي في كتابه الوساطة لا يرضى عن الإفراط فإنه قد وقع
فيه في شعره أحياناً ، كقوله مادحاً :

أعدى الأنام طباعه ، فتكرّموا لو جاز أن يدعى سواه كريماً (٥)
وقوله في قصيدة أخرى مادحاً أيضاً :

ما زال في الناس أشباه وأمثلة حتى ظهرت ، فغاب الشكل والمثل (٦)

(١) أخلصت : دلت على الإخلاص . وعلى قصد : لم يقال فيها .

(٢) فرائد : جمع فريدة ، وهي التي ليس لها نظير .

(٣) الصوب : الانصباب ، وضد الخطأ .

(٤) الذوب : الخالص .

(٥) يتيمة الدهر ٤ : ١٨ .

(٦) المرجع السابق نفسه .

والوصف الذى بقى لنا فى شعر القاضى الجرجاني يأتى فى أثناء شعر المدح ،
إلا حين يصف نفسه ، فإنه حينئذ ينشئ الشعر لذلك قصداً .

وقد وصف القاضى روضة جعلها مقدمة لقصيدة مدح ، وجعل وصف
الربيع وسيلة للمدح أيضاً ، كما وصف الخريف ، ووازن بينه وبين المدوح ،
والشاعر معجب بالفصلين جميعاً ، فإذا كانت أمطار الربيع قد كست الأرض
وشياً مذهباً ، وابتسمت فيه الأشجار بعد عبوس وتمطيط ، وخلعت فيه الرياض
حدادها الذى كانت ترتديه فى أيام الشتاء ، وكأنا سقاها الغيث خمرأ فأخذت
أشجارها تتمايل سكرأ كلما هبت الصبا - فإن الخريف خلاصة العام وأجل
ما فيه ، رقيق الهواء ، صافى الأفق ، عذب الأوقات ، ويستلذ الشاعر بأوقات
الخريف ، حتى ليخيل إليه أنه لو استحال خمرأ ما كانت حراماً .

واتخذ القاضى الشعر وسيلة يصف بها نفسه ، وما يمر بها من آمال وآلام ،
ويبلغ قدراً كبيراً من الإجادة فى هذا اللون من الشعر ، وقد سبق أن أوردنا
بعضه ، ومنه ما كان فى الشكوى .

وكان إعجاب بعض مؤرخيه عميقاً ببعض هذا الشعر الذى وصف به
نفسه ، وبخاصة هذه القصيدة التى مطلعها : « يقولون لى : فيك انقباض . . »
يعلق عليها السبكي قائلاً : « لله درّ هذا الشعر ما أبلغه وأصنعه ، وما أعلى على
هام الجوزاء موضعه ! وما أنفعه ، لو سمعه من سمعه ! وهكذا فليكن ، وإلا فلا ،
أدب كل فقيه ، ولمثل هذا الناظم يحسن النظم الذى لا نظير له ولا شبيه ،
وعند هذا ينطق المنصف بعظيم الثناء على ذهنه الخالص لا بالتنويه » (١) .

ويعترف ابن خلكان به ، فيقول : إنه صاحب قصيدة : « يقولون لى :
فيك انقباض . . » ويعلق عليها بأنها أبيات طويلة مشهورة (٢) . وكان ابن خلكان

(١) طبقات الشافعية ٢ : ٣٠٨ .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ٣٢٤ .

في القرن السابع الهجري ، فقد ظلّ للقصيدَة شهرتها منذ وفاة صاحبها في القرن الرابع إلى أيام ابن خلكان .

أمّا الحكمة فربما وجدتها في ثنايا القصيدة كهذا البيت :

وليس القتي من كان ينصف حاضراً أخاه ، ولكن من إذا غاب أنصفاً^(١)
 وحيناً نراه قد وضعها في آخر القصيدة ، كما فعل زهير بن أبي سلمى في
 معلقته . وحكمه ، وإن كانت قليلة ، تتصل بموضوع القصيدة أوثق اتصال .
 أما إخوانيته فتتدفق فيها عواطفه ، وربما استعار قلمه بعض إخوانه .
 فنظم القاضي شعراً على لسانه ، كهذا الصديق الذي أرسل إليه بعض إخوانه
 هدية فيها أفراخ وبقلاء وباذنجان ، فقال على لسانه يذكر ذلك :
 أبي سيد السادات إلا تظرفاً وإلا وصالا دائماً ، وتعطفاً
 ويمضي في وصف الهدية ، ويختم القصيدة بقوله :

فيالك من أكلٍ على ذكر من به تطيب لنا الدنيا ، تعطف أم جفا
 ولم أر قبل اليوم تحفة مُتَّحِفٍ أسرّ وأبهى ، بل أجلّ وأشرفاً
 علمنا به كيف التظرف بعده ومن عاشر الحرّ الظريف تظرفاً
 تحسّ وأنت تقرأ شعر القاضي الجرجاني بشدة التلاؤم بين أبيات شعره ،
 ووثاقة اتصال البيت بجاره .

وشعره يتراوح بين الطول والقصر ، وأطول ما بقي له قصيدة تبلغ خمسة وثلاثين بيتاً .

وهو شعر متوسط الجودة ، سهل الطريقة ، ولذلك جعله الثعالبي من أتباع
 البحرى^(٢) ؛ وربما لمحت فيه بعض معاني المتنبي ، كقوله :
 تقسّمت العلواء جسمك كله فن أين للأسقام فيه نصيب
 فإنه يذكرنا بقول أبي الطيب مخاطب الحمّى :

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٢٤ .

(٢) يتيمة الدهر ٤ : ٣ .

أبنت الدهر ، عندى كل بنت فكيف وصلت أنت من الزحام
وما يلحظ في شعره الباقي أن معظمه من بحر الطويل أو البحور الطويلة ،
مما يدل على أن منشئه هادئ في انفعاله ، وإن كنت ترى له وبخاصة في
الغزل ، الأبيات القصيرة الدالة على الانفعال السريع العنيف .

٧ - تأثره وتأثيره

كان من الطبيعي لرجل كالقاضي الجرجاني يريد أن يكون من رجال
الأدب ، وأن يؤلف في النقد الأدبي - أن يتصل بالكتب التي ألقت قبله في
هذا الموضوع ، وأن يستفيد من التجارب التي وصل إليها من سبقه من الباحثين ؛
وكان من الطبيعي كذلك أن يظهر أثر دراسته في كتابه : الوساطة بين الشعراء .
فقد رأينا تأثره بابن سلام الجمحي^(١) في إيمانه بأثر البيئة في الشعر . بل
إنه يأتي بالمثل نفسه الذي أورده ابن سلام ، وهو عدى بن زيد ، فيرى صاحب
الوساطة شعره ، وهو جاهلي ، أسلس من شعر الفَرزدق ورجز رؤبة : للملازمة
عدى الحاضرة ، وإيطانه الرّيف ، وبعده عن جلافة البدو . وجفاء
الأعراب^(٢) . وقبل القاضي ضربه ابن سلام مثلاً لسهولة الشعر معللاً ذلك
بأنه كان يسكن مراكز الرّيف ، ويعيش في الحيرة في حيز النعمان بن
المنذر ؛ فنقل على لسانه عبارات نجد ، ولان لسانه ، وسهل منطقته^(٣) .

وتأثر به أيضاً في إيمانه بأن الشعر صناعة يعرفها أهل العلم كسائر
الصناعات ، يقول ابن سلام : « وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم ،
كسائر أصناف العلم »^(٤) ، ويقول القاضي : « ولكل صناعة أهل يرجع

(١) توفي سنة ٥٢٣١ هـ .

(٢) الوساطة ص ١٧ .

(٣) طبقات فحول الشعراء ص ١١٧ .

(٤) المرجع السابق ص ٦ .

إليهم في خصائصها ، ويستظهر بمعرفتهم عند اشتباه أحوالها» (١) .

ورأى كما رأى ابن سلام من قبل أن ذوق العلماء بالشعر هو الفيصل في الحكم ، وإن كان غير مستطيع أن يبين السبب الذي دعا إلى هذا الحكم ، يقول ابن سلام : « يقال للرجل والمرأة في القراءة والغناء : إنه لندى الصوت (٢) والحلق ، طل الصوت (٣) ، طويل النفس ، مصيب اللحن ، ويوصف الآخر بهذه الصفة ، وبينهما بون بعيد . يعرف ذلك العلماء عند المعاينة ، والاستماع له ، بلا صفة ينتهى إليها ، ولا علم يوقف عليه ، وإن كثرة المدارس لتتعدى على العلم به . فكذلك الشعر يعرفه أهل العلم به » (٤) .

وقد سبق أن بينّا رأى القاضي في إدراك الجمال ، وأن مآله إلى باطن تحصيله الضمائر .

وإذا كان القاضي الجرجاني يسوّى بين القديم والحديث ، ولا ينظر إلى القديم بعين الإكبار لتقدمه في الزمن ، ولا إلى الحديث بعين الزرابة لتأخره في الوجود ، بل يفاضل بينهم بمقدار ما منحوه من طبع ، وذكاء ، ورواية ، ودربة ، لا يفصل في هذه القضية بين القديم والحديث ، والجاهلي والمخضرم (٥) ، والأعرابي والمولود (٦) . ولا يرى من العدل استنفاص المتأخرين والالهيح بعينهم (٧) — فن قبله أعلن ابن قتيبة (٨) هذا الرأي نفسه إذ قال : « ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبيل من قلند ، أو استحسان باستحسان غيره ،

(١) الوساطة ص ٩٧ .

(٢) ندى الصوت : بعيد ممدود .

(٣) طل الصوت : حسنة ، عذبة ، ناعمة ، بهيج النغمة .

(٤) طبقات فحول الشعراء ص ٧ . وتعدى : تعين .

(٥) المخضرم : الشاعر الذي أدرك الجاهلية والإسلام .

(٦) الوساطة ص ١٤ - ١٥ .

(٧) الوساطة ص ٤٩ .

(٨) توفي سنة ٢٧٦ هـ .

ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة ؛ لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار ؛ لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه حظه ، فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف ؛ لتقدم قائله ، ويضعه موضع متحيزه ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه ، ورأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده ، وجعل كل قديم منهم حديثاً في عصره . . . فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له ، وأثنينا عليه به ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله ، ولا حداثة سنه ، كما أن الردى إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يفعه عندنا شرف صاحبه ، ولا تقدمه «^(١)» .

وقد وفقى ابن قتيبة الموضوع حقه أكثر مما وفاه القاضى الجرجاني .
وقد قرأ القاضى كتاب الموازنة بين الطائيين للآمدى^(٢) ؛ وهناك أشياء قد اتفق فيها الناقدان :

فمن ذلك تمجيد الناقدين للشعر المطبوع ، وإن اختلفت نظرهما إلى المطبوع من الشعر ، فالآمدى يراه : «المستوى قليل السقط الذى لا يبين جيده من سائره بينونة شديدة»^(٣) ، بمعنى ألا يرتفع ارتفاعاً شديداً فى بعض أجزاء القصيدة ، وينحدر انحداراً معيباً فى بعضها الآخر . وقد سبق أن بينا رأى القاضى فى الشعر المطبوع^(٤) .

ونجد الناقدين يعترفان بتفاوت شعر أبى تمام^(٥) ، وبأن فى شعره استعارات قبيحة^(٦) .

(١) الشعر والشعراء ص ٢ .

(٢) توفى سنة ٨٣٧٠ .

(٣) الموازنة ص ٢٢ .

(٤) راجع ص ٥٣ .

(٥) الموازنة ص ٢٢ ، والوساطة ص ٢١ .

(٦) الموازنة ص ١١٢ ، والوساطة ص ٣٩ .

ووجدنا الآمدى يتحدث عن السرقة ، فلا يجد سرقة فيما يشترك الناس فيه ،
وتجرى طباع الشعراء عليه ، وإنما السرق يكون في البديع الذى ليس للناس
فيه اشتراك ^(١) . وهذا هو رأى القاضى الجرجاني ^(٢) .

ويتسامح الآمدى فى السرقة ، ولا يعدّها من كبير المساوئ إذ يقول :
« إن من أدركت من أهل العلم بالشعر لم يكونوا يرون سرقات المعانى من كبير
مساوئ الشعراء ، وخاصة المتأخرين ؛ إذ كان هذا باباً ما تعرّى منه متقدّم
ولا متأخر ^(٣) . وذلك هو رأى القاضى الجرجاني ^(٤) ، كما سبق أن ذكرنا .

ويتفقان أيضاً فى أن الذى يحكم على الشعر إنما هم أهل الخبرة والدّربة ،
وأنهم قد يدركون ألوان الجمال بأذواقهم ، ولا يستطيعون الإفصاح عن أسباب
حكمهم ، يقول الآمدى : « ألا ترى أنه قد يكون فرسان سليمين من كل
عيب ، موجود فيهما سائر علامات العتق والجودة والنجابة ، ويكون أحدهما
أفضل من الآخر بفرق لا يعلمه إلا أهل الخبرة والدّربة الطويلة . . . وإذا قيل
له : من أين فضلت هذا الفرس على صاحبه لم يقدر على عبارة توضح الفرق
بينهما ، وإنما يعرفه بطبعه ، وكثرة دربته ، وطول ملابسته ، فكذلك الشعر :
قد يتقارب البيتان الجيدان النادران ؛ فيعلم أهل العلم بصناعة الشعر أيهما أجود
إن كان معناه واحداً ، أو أيهما أجود فى معناه ، إن كان معناه مختلفاً . . .
وحكى إسحق الموصلى قال : قال لى المعتصم : أخبرنى عن معرفة النغم ، وبينها
لى ؛ فقلت : إن من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ، ولا تؤديها الصّفة . . .
ولنه ليس فى وسع كل أحد أن يجعلك أيها السائل فى العلم بصناعته كنفسه . . .
ولا أن يأتيلك بعلّة قاطعة ، ولا حجة باهرة » ^(٥) .

(١) الموازنة ص ٢٣ .

(٢) الواسطة ص ١٨٠ .

(٣) الموازنة ص ١٣١ .

(٤) الواسطة ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٥) الموازنة ص ١٧٧ - ١٧٨ .

وفكرته كفكرة القاضى الجرجاني ، ولكن القاضى ضرب المثل بصورتين
مكان الفرسين^(١) .



وكان أثر القاضى كبيراً فيمن جاء بعده ، سواء في الدراسات النقدية ،
أو في الدراسات التي دارت حول المتنبي :
فراينا أثره واضحاً في عبد القاهر الجرجاني عندما تحدث هذا عن السرقة
الأدبية ، فرأى أن المعنى إن كان مما اشترك الناس في معرفته ، وكان مستقراً
في العقول والعادات لا يكون الاشتراك فيه داخلاً في الأنخذ والسرقة^(٢) .
وذلك ما سبق به القاضى الجرجاني^(٣) .

وبرغم أن القاضى الجرجاني كان يدين بتفضيل أبي تمام وتقديمه ، ويراه
قبلة أصحاب المعاني ، وقدوة أهل البديع^(٤) — يراه متكلفاً ، متوعراً للفظ ،
متغلغلاً في التصعب ، طالباً للبديع من كل وجه ، يحتلب المعاني الغامضة^(٥) .
وقد تأثر بهذا الرأي عبد القاهر الجرجاني ، فكان يجد في شعره أمثلة
للتعقيد^(٦) ، وللاستعارة والجناس الرديئين^(٧) ، ويقع في ضرب من التهوس^(٨) ،
ويجده فاسد الذوق^(٩) ، ويفضل الرجلان البحترى على أبي تمام ، ولذلك قدّم
عبد القاهر مختاراته للبحترى على مختاراته لأبي تمام^(١٠) .
ومع ذلك يقف الناقدان معجبين بالشعر الرائع لأبي تمام^(١١) .

(١) الوساطة ص ٤٢٦ - ٤٢٧ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٢٩٤ .

(٣) راجع ص ٦٠ .

(٤) الوساطة ص ١٨ .

(٥) المرجع السابق نفسه . وراجع آراءه في أبي تمام في الوساطة ص ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٦٢ ،

٦٥ ، ٦٧ ، ٧٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٣ .

(٦) دلائل الإعجاز ص ٦٦ ، وأسرار البلاغة ص ١٢١ .

(٧) دلائل الإعجاز ص ٤٠٢ ، وأسرار البلاغة ص ٤ .

(٨) أسرار البلاغة ص ٥٩ . (٩) أسرار البلاغة ص ٢٢٠ .

(١٠) عبد القاهر الجرجاني ص ٣٥ .

(١١) راجع الوساطة ص ٢٠ ، ٦٣ ، ودلائل الإعجاز ص ٨٢ ، ١٧٤ ، ٢٤١ ، وأسرار

البلاغة ص ١٠٠ ، ٣١١ .

وارتضى عبد القاهر الجرجاني ما عرّف به القاضى الاستعارة ، ومتى تكون قوّة رائعة ، فنقل فى كتابه : دلائل الإعجاز^(١) تعريف القاضى للاستعارة ، وأنها ما اكتفى فيه بالاسم المستعار عن الأسمى ، ونقلت العبارة ، فجعلت فى مكان غيرها^(٢) . وإن فسّر عبد القاهر النقل تفسيراً يبين عن نفس حساسة .

ونقل فى كتابه : أسرار البلاغة^(٣) عن القاضى أساس الاستعارة القوية ، إذ جعل ملاكها تقريب الشبه ، ومناسبة المستعار له للمستعار منه^(٤) . كما قبل عبد القاهر أيضاً رأى القاضى فى الفرق بين التشبيه والاستعارة ، فإذا ذكر المشبه والمشبّه به كان ذلك تشبيهاً ، أما إذا اقتصر على أحدهما فذلك هو الاستعارة^(٥) .

ورأى عبد القاهر نقد القاضى الجرجاني لبيت ابن المعتز :
بياض فى جوانبه احمرار كما احمرت من الخجل الحدود
حين قال القاضى : « ولو اتفق له أن يقول : حمرة فى جوانبها بياض ، لكان قد طبّق المفصل ، وأصاب الغرض ، ووافق شبه الخجل ، لكن أراد أن البياض والحمرة يجتمعان ، فجعل الاحمرار فى جوانب البياض »^(٦) - فنقله عبد القاهر فى كتابه أسرار البلاغة^(٧) .

إلا أن عبد القاهر كان أدق من أستاذه ، لأنّ القاضى رأى أن ابن المعتز « راغ عن موقع التشبيه »^(٨) ؛ وأما عبد القاهر فيرى أن الشاعر « لعله وجد الأمر كذلك فى الورد ؛ فشبّه على طريق العكس ؛ فقال هذا البياض حوله الحمرة ، كالحمرة حولها البياض هناك . . . والقصد إلى جنس من الورد مخصوص ، وهو ما فيه بياض يحدّق به حمرة »^(٩) .

(١) ص ٣٣٣ . (٢) الواسطة ص ٤٠ . (٣) ص ٣٤٦ . (٤) الواسطة ص ٤٠ .
(٥) أسرار البلاغة ص ٢٧٩ ، والواسطة ص ٤٠ . (٦) الواسطة ص ١٨٢ .
(٧) ص ١٧٢ . (٨) الواسطة ص ١٨٣ . (٩) أسرار البلاغة ص ١٧٢ - ١٧٣ .

فأنت ترى عبد القاهر يريد أن ينظر إلى المشبه من حيث هو في الواقع ،
ويصحح التشبيه على هذا الوضع ، وكأن القاضي يريد أن يطابق بين المشبه
والمشبه به ، وإن لم يكونا متطابقين في واقع الطبيعة .

وأطال القاضي الجرجاني في الحديث عن تعقيد الشعر^(١) ، وربما يكون قد
أدرك أن المعنى الذي يفهم من البيت لا يفي بالتعب الذي يبذل في سبيل
الوصول إليه^(٢) .

كما أطال عبد القاهر في الحديث عن التعقيد أيضاً ، ولكنه وازن بين
الكلام البليغ المتوقف على دقة الفكر ، وهو ممدوح لدى النقاد ، وهذا المعقد
المذموم ، وانتهى إلى أن المعقد من الشعر والكلام لم يذم ؛ لأنه مما تقع حاجة فيه
إلى الفكر على الجملة . بل لأن صاحبه يجعل فكرك يتعثر في مضمونه ،
ويجعل طريقك إلى المعنى شائكاً ، ومذهباك نحوه وعراً ، بل ربما قسم فكرك ،
وشعب ظنك ، حتى لا تدري من أين تتوصل ؟ وكيف تطلب ؟^(٣)

وإذا كان القاضي قد تحدث عن تفنن الشعراء في السرقة فإن ذلك فتح
الباب أمام عبد القاهر للموازنة بين الشعراء حين يقولون في معنى واحد^(٤) ،
وفي هذا الفصل ينقل رأى القاضي من أن قول أبي نواس :

خليت واحسن تأخذه تنتقى منه ، وتنتخب
فاكتست منه طرائفه واستزادت فضل ما تهب
وبيت عبد الله بن مصعب :

كأنك جئت محتكماً عليهم تخيير في الأبوة ما تشاء
أحدهما هو الآخر في المعنى ، وإن كان أحدهما يتخير الحسن ،
والآخر الأبوة . وأمهما من قول بشار .
خلقت على ما في غير مخير هواي ، ولو خيّررت كنت المهذبا

(١) الوساطة ص ٩٦ .

(٢) أسرار البلاغة ص ١٢٥ .

(٣) دلائل الإعجاز ص ٣٧٤ .

ثمّ تسوّله أبو تمام ، فأخفاه ، فقال :

ولو صوّرت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع ^(١)
وكان لرأيه في إنتاج الشعر أثره في النقاد من بعده .

أما ابن رشيق ^(٢) فقد رأى ما رآه القاضي الجرجاني من أنّ الشعر علم من
علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثمّ تكون الدّربة مادّة له .
وقوّة لكلّ واحد من أسبابه ^(٣) ، وينقل ذلك عنه في كتابه العمدة ^(٤) .

كما يقرر ابن الأثير ^(٥) أن صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور
تفتقر إلى آلات كثيرة . . . وملاك هذا كله الطبع ، فإنه إذا لم يكن ثمّ طبع
فإنه لا تغني تلك الآلات شيئاً ، ومثال ذلك كمثل النار الكامنة في الزّناد ،
والحديدية التي يقدح بها ؛ ألا ترى أنه إذا لم يكن في الزّناد نار لا تنفيذ تلك
الحديدية شيئاً ^(٦) .

ويشيد ابن خلدون ^(٧) بأثر الدّربة في الإنتاج الأدبيّ إذ يقول : « ثمّ بعد
الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال ، يقبل على النظم ،
وبالإكثار منه تستحكم ملكته ، وترسخ ^(٨) » .

* * *

أما أثره في الدّراسات التي دارت حول المتنبي فتبدو في أولئك الذين خصوا
المتنبي بالدّراسة ، فمنهم من أخذ عنه ، ومنهم من رأى في الشاعر رأيه الذي بنى
الوساطة عليه .

فن هؤلاء الثعالبي ^(٩) صاحب يتيمة الدهر ، فقد عقد في هذا الكتاب
فصلاً درس فيه أبا الطيب وديوانه ^(١٠) .

(١) الوساطة ص ١٩٩ ، ودلائل الإعجاز ص ٢٩٠ . (٢) توفي سنة ٤٦٣ هـ .

(٣) الوساطة ص ١٤ . (٤) ج ١ ص ٧٨ . (٥) توفي سنة ٦٢٧ هـ .

(٦) المثل السائر ص ٣ . (٧) توفي سنة ٨٠٨ هـ .

(٨) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٦ . (٩) أبو منصور عبد الملك بن محمد توفي سنة ٤٢٩ هـ .

(١٠) يتيمة الدهر ج ١ من ص ٩٠ - ١٩٠ .

إن هذه الدراسة صدى للمذهب المعتدل الذى كان القاضى الجرجاني من زعماء مثليه ؛ فإن الثعالبي يوازن بين مزايا الديوان ونقائصه ، كما فعل القاضى من قبل .

يقول الثعالبي : « وأنا مورد فى هذا الباب ذكر محاسنه ومقايجه ، وما يرتضى وما يستهجن من مذاهبه فى الشعر وطرائقه . . . ، والتنبيه إلى عيونه وعيوبه »^(١) ؛ وهو بذلك ينهج نهج القاضى الجرجاني الذى يرى للمتنبى محاسنه وعيوبه .

وينقل عن صاحب الوساطة رأيه فى أن أبا الطيب عندما قال :

أقل ، أنل ، أقطع ، احمل ، علّ . سلّ ، أعد
زد ، هشّ . بشّ ، تفضّل . أدن ، سرّ ، صِلّ

قد نسج على منوال ذلك الجنّ ، عندما قال :
أحلّ ، وامررّ . وضرّ ، وانفع ، ولن . واخشن ، ورشّ . وبرّ ،
وانتدب للمعالى^(٢)

فلما جاء إلى سرقات المتنبي رأى أن يورد منها ما لم يورده القاضى فى كتابه ، وقد رأى الثعالبي أن القاضى فى هذا الباب « شفى وكفى ، وبالغ فأوفى »^(٣) .

أما الأبواب الأخرى التى عقدها لبيان معاييب شعر المتنبي فإنه أحياناً ينقل عن القاضى رأيه فى هذا المعيب^(٤) ، ويذكر اسمه صراحة . وأحياناً ينقل ، ولا يذكر الاسم .

وتأثر به من دارسى المتنبي كذلك أبو سعيد محمد بن أحمد العميدى^(٥) ،

(١) بتيمة الدهر ١ : ٩١ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٠ .

(٤) المرجع السابق ص ١٢٨ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٤٦ .

(٥) توفى سنة ٤٣٣ هـ .

فبرغم أن اتجاهه يخالف اتجاه القاضى تمام المخالفة ؛ لأنه هاجم المتنبي هجوماً عنيفاً ، ولم يرد إلا بيان ما فى شعر أبى الطيب من السرقة ، إذ يقول : « ولقد تأملت أشعاره كلها ؛ فوجدت الأبيات التى يفتخر بها أصحابه ، وتعتبر بها آدابه ، من أشعار المتقدمين منسوخة ، ومعانيها من معانيهم مسلوخة »^(١) ، برغم ذلك نجد تأثره به واضحاً فى أنه لم يجعل الدين من مقاييس نقده للمتنبي ، فهو يعلن إنكاره لذلك فى صراحة ، ويقول : « وكيف يسوغ لى أن أثلبه لإلحاده . . . وأنا أتتقى أن أكثر من يستشهد بأشعارهم المشركون والكفار والمنافقون والفجار »^(٢) . وقد سبق أن أعلن القاضى أن الدين بمعزل عن الشعر^(٣) .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن الثعالبي ، وإن كان يرى « أن الديانة ليست عياراً على الشعراء ، ولا سوء الاعتقاد سبباً لتأخير الشاعر »^(٤) يرى أن « للإسلام حقه من الإجلال الذى لا يسوغ الإخلال به قولاً وفعلًا ، ونظماً ونثرًا »^(٥) .

ولكننى رأيت العميدى ينقل خطأ عن القاضى الجرجاني : « أن البحتريّ أحرقت خمسمائة ديوان للشعراء فى أيامه حسداً لهم ؛ لثلاث تشتهر أشعارهم ، ولا تنشر فى الناس محاسنهم وأخبارهم »^(٦) ؛ فإن القاضى لم يرو الخبر على هذا الوجه ، بل قال : « إن البحتريّ أسقط خمسمائة شاعر فى عصره »^(٧) ؛ وليست أدرى كيف وقع العميدى فى هذا الخطأ ؛ فهناك فرق شاسع بين الروایتين .

(١) الإبانة عن سرقات المتنبي ص ٢٢ .

(٢) الإبانة عن سرقات المتنبي ص ٢٤ .

(٣) الوساطة ص ٦٢ .

(٤) يتيمة الدهر ١ : ١٤٢ .

(٥) المرجع السابق نفسه .

(٦) الإبانة عن سرقات المتنبي ص ٢٣ .

(٧) الوساطة ص ١٥٧ .

ويخالف العميدى القاضى الجرجانى فى نظراته إلى ابن الرومى ، فبينما لا يراه القاضى الجرجانى شيئاً إذا قيس بالمتنبى ^(١) ، يفضلهُ العميدى على أبى الطيب ، ويقول : « ولا أقيسه فى امتداد النفس ، وعلم اللغة ، والاقتدار على ضروب الكلام ، وتصوّر المعانى العجيبة ، والتشبيهات الغريبة ، والحكم البارة ، والآداب الواسعة ، بابن الرومى » ^(٢) .

أما يوسف البديعى ^(٣) فى كتابه : « الصبح المنبى ، عن حيشة المتنبى » فيختار طريقة صاحب الوساطة منهجاً له ، فيذكر معائب شعره ومقابحه ^(٤) ، ثم يورد « نبذة من محاسنه وروائعه ، وغرائبه ، وقلائده وفرائده التى زاد فيها على من تقدّم ، وسبق بها جميع من تأخر » ^(٥) .

وقد انتفع البديعى بكلّ ما قرأه من كتب السابقين عن المتنبى ، كيتمية الدهر للثعالبي ، والمثل السائر لابن الأثير ، والكشف عن سرقات المتنبى للعميدى ، والكشف عن مساوئ المتنبى لابن عباد ، والمنصف لابن وكيع ، وإلى جانب ذلك انتفع بجهود صاحب الوساطة فى دراسة للمتنبى .

* * *

٨ - منزلته

للقاضى الجرجانى مكانة عالية فى النقد الأدبى ، وإنه يستمدّ هذه المكانة من أمور كثيرة ، منها :
دعوته الحارّة إلى العدالة فى النقد ، وعدم اتباع الهوى ، وهو بذلك يدعو إلى نقد مؤسس على الشعور الصادق ، لا على التقليد والتحامل .

(١) الوساطة ص ٨٢ .

(٢) الإبانة عن سرقات المتنبى ص ٢٤ .

(٣) توفى سنة ١٠٧٣ هـ .

(٤) الصبح المنبى ص ١٨٠ .

(٥) الصبح المنبى ص ٢٣٧ .

ومن العدالة في النقد النظر إلى موضوع النقد من زواياه المختلفة ، حتى ينال ما يستحقه من الذمّ أو الثناء ؛ إذ من الظلم الحكم على الشيء بجانب منه ، دون إشراك باقي الجوانب . وبهذه النظرة الشاملة تكون النتيجة أقرب ما تكون إلى الصواب .

ومن العدالة في النقد أيضاً الاحتراس في إصدار الأحكام ، حتى لا تلقى جزافاً ، فلا بدّ من الاستقراء الشامل . ليكون الاستنتاج صحيحاً ، فإذا لم يتأتّ هذا الاستقراء فحذار من إلقاء الأحكام العامة ؛ لأنها حينئذ تكون خاطئة .

والقاضي الجرجاني يستمد هذه المبادئ من عمله قاضياً ينبغي له أن يتثبت من أسباب الحكم قبل إصداره .

وعندما أشاد القاضي بالطبع المهدّب الذي صقله الأدب ، وشحذته الرواية ، دعا النقاد إلى أن يأخذوا بنصيب كبير من الثقافة الأدبية ، متى كان الطبع لديهم ، حتى تهيأ لهم الأداة الصالحة للحكم الصواب . والواقع أنه من غير هذا الطبع المهدّب لا يمكن الحكم على النصوص الأدبية حكماً له قيمة نقدية .

ووضّح القاضي الأسس التي بها يتفاوت الشعراء في الجودة . ويوضع بعضهم في طبقة أعلى من بعض . يوم ذكر أن الشعر علم يشترك فيه الطبع ، والدكاء ، والرواية ، والدربة ؛ ولا يكاد الزّمن يضمّ إلى هذه الأسس جديداً إلا أن يضع مكان الرواية الثقافة التي يُطالب بها الأدباء في العصر الحديث ، ورواية النصوص الأدبية ودراساتها بعض من هذه الثقافة .

وكان القاضي صريحاً عندما أعلن أن شعراء الجاهلية يخطئون ، وأنّ النحاة يركبون الصّعّب لتأويل هذا الخطأ ، من غير أن يكون ثمة باعث سوى شدة إعظام المتقدم . وفي تلك النظرة المتحرّرة ، ما يجعل الناقد يصدر حكمه

كما يهذى إليه عقله وذوقه المصقول ، لا يحول بينه وبين أن يقول ما يعتقد إيماناً بقداسة الأقدمين .

كما أنه من النقاد الذين رأوا جمال الشعر في أن يكون مطبوعاً لا تكلف فيه ، ولا اجتلاباً لمحسن أو زينة ، وهو رأى تؤمن به الأذواق الصافية . ويأخذ به عصرنا الحديث .

ولا يمنع القاضي أن تصاغ الآراء الفلسفية شعراً ، بل يرى الممتنبي يتأتى له المعنى البكر إذا خرج عن رسم الشعر إلى طريق الفلسفة ، كما في قوله :
إلف هذا الهواء أوقع في الأذن نفس أن الحمام مرُّ المذاق
والأسي قبل فرقة الروح عجز والأسى لا يكون بعد الفراق^(١)
وكأنه بذلك يسمح لجميع التجارب الإنسانية ، أن تصاغ في لغة الشعر .
وإذا كان قد عاب على أبي تمام أنه خاطب غلاماً غراً بلغة فلسفية^(٢) ، فوضع العيب إنما هو في استخدام الأفكار الفلسفية في غير مكانها .
وقرر القاضي الجرجاني في صراحة الصلة بين الأدب وخلقة الأديب فضلاً عن الصلة بين أدبه وطبعه وذكاؤه .

وهو ناقد موضوعي ، يحدد موضوع النزاع ، ليناقشه ويخرج منه بنتيجة مقبولة .

فإذا أضفنا إلى ذلك كله الجهود التي بذلها في بيان ما للممتنبي من حسنات وسيئات ، وما ضربه من الأمثلة بلعيد شعره ورديته ، وما قام به من دراسات لشعراء ساقه إليها دراسته للممتنبي أدركنا قيمة الرجل بين نقاد العرب .
وإذا أضفنا أيضاً عمق نظرت ، ومقدرته على التحليل . والتعليل وتبيين ما في الشعر من مظاهر الانحراف ، وتوضيح ذلك وتصويره ، فهمنا قيمته في النقد الأدبي .

(١) الوساطة ص ١٧٧ .

(٢) راجع رأيه في شعر أبي تمام في فصل « منتخبات من آثاره » .

ولكننا نأخذ عليه أنه لم يحدّد في وضوح مكان أبي الطيب بين الشعراء ،
وعندما « قسم شعره فجعله في الصدر الأوّل تابِعاً لأبي تمام ، وفيما بعده واسطة
بينه وبين مسلم » ^(١) وعندما جعلك « لا تدعى لأبي الطيب طريقة بشار
وأبي نواس . . . ولو ادعيته فإنما كنت تخادع نفسك ، أو تباهت عقلك ،
وإنما أنت أحد رجلين : إما أن تدعى له الصنعة المحضة ، فتلحقه بأبي تمام ،
وتجعله من حزبه ، أو تدعى له فيه شركاً ، وفي الطبع حظاً ، فإن ملت به
نحو الصنعة فضل ميل صيرته في جنبه مسلم ، وإن وفرت قسطه من الطبع
عدلت به قليلاً نحو البحري » ^(٢) . — عندما قال ذلك لم يزدنا علماً بمكان
أبي الطيب ، ولكنه شككنا في موضعه الحقيقي ، أين يكون .

(١) الواسطة ص ٤٩ .

(٢) الواسطة ص ٤٨ .